قِصّـة
آدم أبــو الــفَــرَج

فاروق عبدالجبار عبدالامام

المقامة المندائية

الطبعة الأولى للكتاب سنة 2013

(2)(1)

حقوق التأليف والطبع والنشر للكتاب محفوظة للمؤلف:

فاروق عبدالجبار عبدالامام

حقوق نشر الكتاب الإلكتروني محفوظة لموقع :

موسوعة العيون المعرفية

www.MandaeanNetwork.com

إهداء إلـــى

الرِّيشمّة ستّار جبّار حلو رئيس أُمّــة الصابئة المندائيين

الرِّيشمّـة صلاح جبّـار طاووس

روح الرِّيشمّـة الخالد آدم أبـو الفَـرَج

وإلى أرواحِ الصابئة المندائييـن الطيبين الخالدين

آبـــــاءٍوأمهــات ،أخـواتٍ وإخـوان، أبنــاءٍ وبنـــات

وإلـى كـلِّ من ندب وصاح :

{أكـاهيي أكـامـاري أكـا منداﺩهيي} (3)

تـــوطئـــة :

آدم أبو الفَـــرَج

واحدةٌ مِن أحبِّ الشخصيات المندائيّـة التي يفخرُ الأدبُ المندائي بها، ويُعتزُ أشدَ الإعتزاز بهذه الشخصية الفذة والتي تركت ميسمها ولعدة قرون على الذّاكرة المندائية، ومازالت وستبقى خالـــــــــدة .

هذه الشخصِّية الفريدة، حيكت حولَها الأساطير، والحكايا؛ مما أعطاها البعد النفسي الغيبي، أو ما يسمّى (ما وراء الطبيعة)، بأن من يندبه من الصابئة المندائيين وكان في ضيق؛ سيفرَّج عن كربتهِ، ويتخلّصَ من الّضيق الذي يعانيه وقتذاك. الآن، وفي أيامِنا المعاصرة هذه؛ فلقد سمعتُ قصصاً عديدة عن مكرمات هذه الشخصية، خاصة اثناء الحروب وخاصة الحرب العراقية الأيرانية والتي إمتد أوراها لأكثر من ثمانِ سنوات، وأكلت ما أكلت ودمرّت ما دمرت، فلقد سمعت أن أحدهم كان في الخطوط الأمامية للقتال وهو يوشك أن يُقتل بعد مقتل من يحيطون به من الجنود العراقيين إلا إياه، حين قالمحدثاً أهله والأقرباء الذين حضروا لتهنئته على سلامته ورجوعه سالماً معافى بعد ثلاثة أيام من الهجوم المعاكس الذي شنّه الإيرانيون على القوات العراقية :

{ *كنتُ أصرخُ في سرّي طالباً من (آدم أبو الفَرَج) النجاة و الخلاص مما أنا فيه لقد كنت يائساً من حياتي ومن النجاة ؛ فأذا بصوت الرَّصاص الذي كان ينطلقُ* من البنادق الإيرانية، وكأنه قد سكت تماماً**!** لا أعرف ماذا حدث بالضبط؛ لكنها معجزة وقد تحققت، ولا أجد تفسيراً لها سوى إن الذي ندبته قد كانِ موجوداً وهو يدفع الرصاص المنهمر كزخات المطر بعيداً عني؛ وها أنا بينكم سالماً، هل تعلمون لقد كنتُ قد أُعطيتُ في الخسائر على أني آنذاك (شهيد) }

وهذه الحادثة ومثيلاتها قد ترددت وبكثرة، ومن أشخاصٍ آخرين، لايعرفون بعضهم بعضـا؛ الأمر الذي يؤكد أن هنالك أمرٌمرتبطٌ ومكرمات هذا الرجل والذي كان وقتذاك بدرجة دينية عالية؛ ألا وهي { ريشمّـة } وتعني باللغة الآراميّـة [رئيس الامّـة].

لكني أقول: إنَّ ما قد ما حدث ليس مجرّد صدفة، بل و ما حدث قد حدث لأمر ما خارج عن تصورنا، أنه الإعتقاد الراسخ بأن القوة الكامنة في هذا الإنسان قد فعلت فعلها؛ فارتباط الصرخة المكبوتة من ذلك المندائي الصابئي المواجه للموت، وما حصل بعد ذلك، عزز ذلك الشعور؛ فبات في حكم المؤكـد إن لهذه الشخصية التأثير النفسي العميق والذي لا يمكن التغاضي عنه، مهما إمتد الزمن. وبمرور الوقت وبعد إنفراج الضيق الذي التصق بالعراقيين عامة وبهولاءِ القوم المسالمين خاصة؛ بما إمتازوا به من عدم حبهم للعنف والإبتعاد عنه قدر الإمكان. وعند إنفراج الأمور وما تلاها من هدنة؛ خفّ ذكرُ هذه الشخصيّة المندائيةالصابئية المعرفية العريقة والتي إستمد قوته من الحي الأزلي لفترة وجيزة لم تتعدَ السنتين؛ حتى طفت ثانية وبشدة، بعد إجتياح الطاغية

صدّام الكويت وما جناه العراق من غرقٍ في معمةٍقاسية، كانت نتيجتها ومحصلتها إحتلال بوش السّفاح للعراق وبمساندة أكثر من خمسين دولة.

في خضم هذا الإضطراب العام بدء المندائيون بالهجرة العشوائية والتشتت القسري؛ تخلصــاً من عنفٍ وقتلٍ وذبح جديد، إمتد شعاعه لمختلف بقاع أرض العراق، لكنه طال بشكلٍ خاص القوم الوادعين المسالمين؛ ألا وهم [الصابئة المندائيون] هولاءِ القوم المسالمون الوادعون الذين تعرضوا لفتاوى وتخرصات لم يُنزل الله بها من قبلُ .

هروبٌ وهجرةٌ ونزوحٌ جماعيٌّ وصلوا نهاية المطاف الصين والبرازيل، وامتد من أستراليا حتى كندا وامريكا. أما في أوربا فتجدهم في السويد والمانيا وفرنسا وهولندا وإذا نسيت فلا أنسى فنلندا، والدنمارك، أمّا بريطانيا فكانت من أوائل الدول التي إتجه إليها إخوانٌ لنا، أمّا في بلدان الجوار ودول الإنتظار فكانوا في اليمن والإمارات وإيران والاردن وتركيا. في سوريا والتي كانت بلد الإنتظار الأكثر إزدحاماً بالصابئة، بعد الأردن ونتيجةً لما يحدث فيها الآن؛ بات الصابئة بوضعٍ لا يحسدون عليه ، وهم الآن يحتاجون لأكثر من واحد من أمثال [آدم أبو الفرج] ، بل يحتاجون لمنقذين كِثار، يقفون معهم؛ لينتشلوهم مما هم فيه الآن - قائمــة الـدّول التي نزح إليها قوم يحيى (عليه السلام) قد طاولت أكبر الهجرات التاريخية في كلِّ أنحـاءالعالم ؛ على الرغم من قلة عدد هولاءِ المسالمين الحالمين بسلام وأمنٍ، قائمة تطول ولا تقصر بل، وقد تكون هنالك دولٌ قد نسيتُ أن أضعها في هذه القائمة،؛ فنحن إذن يصح والحالة هذه أن نُسمّـــــى {{ الشعب المندائي المشتت }}.

وهاهو آدم أبو الفرج يزورُنا كلَّ يوم؛ فنحن وإن تنعمّنا بالحريّة ؛خاصة جيلنا الحاضر ، لكننا في ضيقٍ عميقٍ ينبعث من دواخلنا دونما أن نشعرَ أو نفكّر به؛يزورنا ضيفاً مُرحّباً بــه ، في كلِّ آنٍ ومكان .

وهذا الإعتقاد الراسخ بهذا المخلّص ولّــد ما يُشبه القناعة لدى الشعب الصابئي المندائي العريق بأنه المنقذ وأنه الحامي الذي نندبه كلّما شعرنا بالضيق؛ وكأنه بنا كفيل، وبانفراج الغُمّــةِ لصيق، وهذا ما عانيته وأنا في اليمن؛ فكان لي عوناً في أن أجتاز الأزمة بعد الأخرى ، وأبقى أُعاني من حلم لم يبقَ منه سوى جملةٍ واحدة{ زارني آدم أبو الفَرَج ولم أُحسن إستقباله } وكانت كفيلة بإيقاد شمعة في كهف حياتي ،أنار لي طريقاً في الكتابة ؛ وها أنا أرد لأدم أبي الفرج، الزيارة وأقــول :

(شكراً لزيارتك لي؛ لأنك مددتني بما أحتاج لأكتب هذا العمل، الذي قضيت فيه تفكيراً عشر سنوات، كانت أقساها السنوات الثلاث الأخيرة؛ فلقد كتبتُ ما لا يأقلُ عن مئة مسودة ، أزيد وأُضيف،وأمحو وأحذف وأعـدّل؛ ليخرجَ العملُ بصورةٍ مرضية، ولتُعطيَّ لــ{آدم أبو الفرج }} المكانة اللائقة التي يستحقهُا؛لأن هكذا شخصية ظلت دائمة الوجود خلال حقبٍ عديدة، ولأجيالٍ متعاقبة ؛ لتستحقُّ أن تُخلّــد وإلـى الأبد.

أعيد و أقول: لقد بات في حكم المؤكــد إن لهذه الشخصية التأثير النفسي العميق، الأمر الذي جعل مكانه هذا الإنسان خاصة، لا يشاكله فيها أحد؛ فلم يذكر لنا تاريخنا المندائي على إمتداده الموغل في القِـدم، شخصاً آخرمثلما تمَّ به وصف آدم أبو الفرَج.

ومع كلِّ ما تقدّم ؛ فالتّأصل هاهنا ثابت؛ فحينما يشعر أحدُنا أن النتيجة ألتي حصل عليه نتيجة عملٍ ما، في زمنٍ ما، هي هيلا تتغير، وفي كلِّ مرة تحدث نفس النتيجة؛ فسيكون من العسير ألّا نعزو هذا العمل وهذه النتيجة إلي أمر خارقٍ لكلِّ المفاهيم والقيم؛ فالإيمان بشيءٍ ما ، يُعطيه قوةً خفية، وأيماناً مطلقاً لا يستطيع أحدٌ منّا ومهما أوتي من حجة ومنطق، التشكيك بوجوده أو نفي أيِّ عملٍ يتعلّق به ؛ وسيكون من الأفضل مسايرة الآخرين مهما كان إيمانهم يتعارض وإيمان الفرد الآخر ؛ لأن ذلك يعني إننا نشكك لغرض التشكيك فقط، دونما سندٍ أو مبررٍ. ومن جهة أخرى ، فقد يكون لهذه الشخصية الوجود الحقيقي وبالتالي سيكون تأثيره الفعلي أشد من التأثير الغيبي؛ لأن الحقيقة أحق أن تُتّبع .

الملاحظ هنا: إننا كبشر ، نكون أقوياء على الضعفاء أو المتخاذلين الذين يُظهرون نقطة واحدة من الضعف أو الإنكسار، وحالاً سنكون كمن وجد ضالته ليُشبع غطرسةَ نفسهِ، وتبجحه أمام الآخرين بأنه الأقوى وبأنه الأجدر، وهو في حقيقة الأمر، واهمٌ متخاذلٌ أكثر من المتخاذل نفسه ، وهذا ما سنلمسه في شخصية عابد النار ؛ والذي إستغل طيبة وتسامح الصابئة المندائيين ليُملي عليهم شروطه ، وشروطَ دينه الذي يرفضه الصابئة وفي كافة الأزمنة ، هذه الطيبة وهذا التسامح أعطت لعابد النّـار مايريده من حجة وهميّـة ؛بأنه قادر وأنه يستطيع أن يُرغم الآخرين على إن يتبعوا عقيدته مهما كانت وكيفما كانت .

ومهما يكن؛ فشخصيّة {{آدم أبو الفرَج}} وبكلِّ المقاييس شخصية فذة محببة لدينا؛ بما تحملُ من روح التحدي للصعاب والتخلّص من المواقف الحرجة بأقل الخسائر وأكثرها ربحـــا؛ فلو لم تكن كذلك؛ لكانت قد إنطمست وزالت بتقادم الزمن ؛ وما لاقته قصة { مقامة آدم أبو الفرَج } من ردود أفعال، كانت كلها إيجابية، ومشجعة؛ لا لأني قد كُتبتها بهذا الشكلِ المنسّق؛ وأقصد به طريقة { السجع } وهو أُسلوبٌ ممتعٌ ، وعمره يمتد لأكثر من ثلاثة آلاف عام، وقد أجاد الكثير من الكتّاب في هذا الفن الإبداعي، السّهل الممتنع، (ومنهم أبو محمّد الحريري، بديع الزمان الهمداني، أبو إسحق الصابي، و ناصف اليازجي) .

وفي زمننا المعاصر، وحينما شرع شاعرُنا الصابئي المندائي المُبدع أبـــداً{عبدالرّزاق عبدالواحد } في عملٍ فذ، يُذكر له بكلِّ فخر وتمّيز؛ لجـأ إلى أسلوب السجع. وذلك عندما قام بصياغة أدبيةٍ في غاية الروعةٍ والإتقان اللغوي وهوالشاعر الفذّ المتمكّن من ناصية اللغة العربية ،العالية الفصاحة، فقد أعاد الصِّياغة الأدبية للترجمة العربية لكتابنا المقدّس العظيم { الكنزا ربّـــا } مبارك اسمه ، إلى لغةٍ عربيةٍ شعريةِ الجرسِ والوقع؛ فهي كالموسيقى في غاية الجمال اللفظي والمعرفي، والتي ترتفع بالحس الإنساني لغاية القبّة السماوية. لغةٌ بليغةٌ ، وسلاسةٌ لفظية منقطعةُ النظير؛ تُطربُ من يستمعُ إليها وتشدُّ القاريء لها، لقد أعاد عبدالرزاق عبدالواحد صياغة نصٍ شعريٍّ مقدّسٍ متميزٍ بلغتِه الشعرية الأخّاذة؛ فأعطى للترجمة إلى اللغة العربية صياغة لغوية ألبسها ثوب الإتقان والصنعة المتينة ،وأعطاها ما تستحقُ من روح الإبداع التي أمتاز بها شاعرُنا المجيد عبدالرزّاق عبدالواحد.

إنَّ أُسلوبَ السّجع أُسلوبٌ، صعبٌ في التطبيق ؛ لما ما يصاحبُه من التعقيد والتعب، والتّكلّف، { أما أدب الصنعة والتنميق؛ فلقد بلغ أوجّه في هذا العصر [القرن الرابع الهجري] مع إبن العميد، وأبي بكرِ الرازي، وأبي أسحق الصابي؛ فلقد أصبح مزيجاً من زخرفٍ أنيقِ وموسيقى لفظته غنية } **(4)** وهذا القول يعزز ما قلته آنفاً؛ بدليل أني قد قضيت أكثر من ثلاث سنوات أُعيد وأكتب وأشطب وأسأل من يحيطون بي عن النغمة المناسبة لغرض ملاءمتها مع ما سبقها وما يليها؛ ليكون نسيج الحبكة مشدوداً غيرَ متراخ أو متهدل؛ بتكرار وزنٍ بعينهِ، أو كلمةٍ بذاتِها؛ كيلا يُصيبَ المستمعَ أو القارئ الملَلُ والإمتعاض. خاصة وأنا موقن تمام اليقين ، أن الكثير من القرّاء يُقبِلون على تلقّف المواضيع الجادة التي تعطيهم ما يبتغون من متعة عقلية وفكرية ، ولكنهم وبعين الوقت لا يَقبَلون بالإسفاف أو التهويل؛ لأن ذلك يعني الحشو المفتعل والذي لا طائل من تحته؛ لذا فلقد كنت حريصاً أشد الحرص ألّا أقع في الممنوع وأبيحه لنفسي وأرفضه للآخرين، وهو أمر محزنٌ بحدِ ذاتهِ.

ومع كلِّ ما تقدّم فأني أعترف بأن بعض الكلمات قد أعدت إستخدامها؛ لكن للضرورة القصوى؛ فعندما ينتهي رصيدنا اللغوي أو يكاد ينتهي؛ فإننا نلجـأ بشكلٍ أو بآخر لأستعارة ما سبق وأن تمَّ أستخدامه في مكان آخر وذلك منعاً لحدوث خللٍ ما في بنية الجملة، وبالتالي إنهيار العمل قبل الشروع فيه أو إنجازه بشكلٍ لايليق ؛ مما يولّـــد ما لا يُستحب، ما هو إلا دليل جلي وواضح المعالم.

والحي الأزلي مزكـــيّ الأعمال والنيات وإليه أبتهل :

أن يحفظ أمّتـنا العراقيــة الأصيلة من التشتت والضياع لأن ذلك يعني ضياع اسم الصابئة المندائيين والذي يمتد منذ بداية الخليقة ؛ حينما نزلت صحف الله على قلبِ آدم الرجل الأول والذي منه بدأت الخليقة ،

ومنه وامّـنا الخالدة حواء ، تكونت البذرة الأولى والحياة الأولى في أرضنا ، أرضِ الماءِ الآسنِ والدمِّ والمرارة . ومن خالق الخلق العظيم أطلب أن يُديم الحبَّ والمحبة والتسامح على أرض العراق الحبيب ؛ فمهما إبتعدنا ؛ فقلوبنا إليه تهفو وستظل إليه تحنو .

فاروق عبدالجبار عبدالامام

2013/ 03 /13

واليكم أعزائي

قِصّة {آدم أبو الفَرَج }

ذاتَ شِتاءٍ ، كنّا متحلّقين ،{حولَ صوبةِ علاء الدين} **(5)**، وكأننا بها ملتحفين، وكالعادة، كان فوقَها حبّاتُ الكستناء، فاكهة الشّتاء، ذات الغطاءِ الصّلب، واللُبِ الرَّطِب، لونُها برّاق، طيبةُ المذاق وكأنها لنا ترياق، نأكلها باشتياق، ونقضُمها بتلذذ، رُغمَ ملمسِها الحرّاق؛ فنأكلها بعد طولِ فراق؛ وهي كما يُقال تُطفئ لهفةَ المُشتاق؛ لذا فكلَّ شتاءٍ لنا معها مِيعادٌ ولقاء، ونُتركها على أملِ العودة في قادم الشِّتاء. كما إننا تعودنا في ليالي الشتاء أن نسمعَ من أبي قِصّة؛ فلا تلفزيون لدينا، وليس لنا فيهِ حِصّة ؛ فما كان قد وُجِدَ في بيتِنا بعدُ، وليس لنا فيه عهدُ، ولم يُقطع لنا أحدٌ ، في شرائِه وعدُ؛ عليهِ كانت قَصصُ أبي مفيدة، وبها نقضي أوقاتاً سعيدة، من تلك القصصِ، قِصّةُ { علاء الدين أبو الشامات، وحياة النفوس و الملك أرمانوس } **(6)**

وكانت هذه أحبَّها إلينا ؛ لأنها تحملُ اسمَ أُمّي [حياة] وكان أبي كثيراً ما يتغنّى حينما يصلُ إلى هذه المقاطع ويبدأ بالقول (حياة ـ حيوتة ـ حياة النفوس ـ راحة النفوس) ـ إلى ما تجودُ به قريحتُه من أسماءِ التّحببِّ لأمّي، أمّا أمّي فيكادُ يغلبُ عيونَها الإنغلاق، من شدّةِ التّعبِ والإرهاق ؛ فهي تسعى مُنذُ الفجرِ، حتى يأتي الليلُ في الإنطباق، أمّـا نحن؛ فلا نُعطيها ما تستحقُ مِن الإشفاق، و ما همّنا لو نامت أمُّ باسم أو ظلت ساهرة ؛ فأبي هو المُراد، وإليهِ الأفئدةُ تنقاد؛ فنتجمّع كُلُّنا حولَ أبي ؛ فلا يعُد يوجدُ مكانٌ للجلوس؛ فما كان لدينا كراسي، وليس هذا من المآسي، بل هو ملحُ الأماسي، ولسنا بحاجةٍ الى الآسي **(7)**، مهما كان البردُ قاسي؛ فصوبةُ علاء الدين ، وقصصُ أبي؛ بقضاءِ الليلِ كفيلان، ولنا كافيان؛ طالما نسمعُ من أبي قَصصاً تُزيلُ العُبوس، وتهدأ معها النفوس، ننامُ بعدها على ضوءِ الفانوس، فلا يبقى مكانٌ لكابوس.

كان أبي حلوَ الصّوتِ والجِرسِ، مطربٌ في كلِّ عُرسٍ، يحفظ من القَصصِ أكثرَها إثارةً وتشويق، ومن الأغاني أكثرَها حُزناً وأشدَّها تمزيق. وهو، رحمهُ المنان، صائغٌ فنانٍ، ينقشُ أجملَ الأفنان، وتخرجُ من تحتِ منشارِه، الورودُ والأغصان، وبالمينا الملونةِ الزّاهيةِ الألوان؛ يُعطي الذّهبَ أجمل عنوان.

وهو حلالي **(8)** منذ بدءِ الغرسِ؛ لذا كان مطلوباً من المندائيين **(9)** يُحي حفلاتِهم، ويعلو مسراتِهم؛ فالمطربون قليلون؛ لذا فلأبي باسم، أهلُ العُرسِ يتجهون. وهو معروفٌ بلا مُنازع، في كلِّ بيتٍ وشارع، فأبي { رواه ناويلة [الملواشة] سام برياسمن **(10)** } كان حلالي؛ فهو يذبحُ للمندائيين في كلِّ مناسباتهم، وُيشاركُ في تكّفينِ وحملِ موتاهم؛ فلذلك كان متواجداً في أفراحِهم وأتراحِهم، موجوداً في كلِّ المناسباتِ و المُلمّات، يُساعدُ الأحياءَ والأموات، وهو بيننا يُحي لياليَنا بقَصصٍ لا تنتهي وحكاياتٍ لا تنقضي.

ما قصَّه علينا أبو باسم، تلكَ الليلة، قضى في سردهِ طولَ ذلك الشّتاء؛ فالوقتُ ضيّق، والموضوعُ شيّق، ننامُ في لحظات، فتُصبحُ القِصّة على بيات؛ لذا كان أبي يُعيدُ بدلَ المرّةِ مرّات؛ لإننا يجبُ أن نعرفَ النهايات؛ لنكونن على بينات.

عادةً ما كان يبدأ أبي بكلمـــةٍ معهودة، وعلى الجميع مشهودة [ها وين وصلنا..!]

وبصوتٍ واحدٍ نقول .. وصلنا الى ...

في ذلك الشِّتاءِ قصَّ والدي ما سمِعَهُ من أبيه، وها أنا أنقلُه لجابر أبني الوحيد، لعلَّ منه يستفيد، وبدوره ينقلهُ لأبنهِ من الجيلِ الجديد؛ جيلِ [الأنترنيت والفيس بوك] العتيد؛ وإن أراد أن يُصغي إليَّ وإلى غيره يُعيد، فسيكون ذلك [عندي] يومَ عيد، وإن لم يجدْ لديهِ متسعاً ليُصغي، فسأرسله إليهِ بالبريد، أو[بالأيميل] الحميد، والذي أصبحَ بمثابةِ العيدِ السعيد؛ فهو يربط القريبَ والبعيد فلعلَّ منه يُفيد، ولغيرهِ ينقلُ ما يُريد، واللهُ على ما أقولُ شهيد.

نقلَ هذا الحديث ، فاروق عن أبيهِ عبدالجبّار، والذي نقله عن أبيهِ عبدالامام عن جدهِ كرم الله عن جد جد أبيه عديل، والذّي نقلَ عن أبيهِ فرج قولَه هذا، والذي سبق وأن قال أخبرني أبي خيري عن أبيهِ عزيز، عن أبي أبيه فُرّخ ملكا عن جدِ أبيهِ نوروز، والذي ذكر في حديثٍ له عن أبيهِ الرّبّي مهتّم والذي كان قد صرّحَ و قال: حدثني جدّي الأكبر يهيا آدم زهُرن الدّهداري وكنايتُه *صابور* (11) وهو من أبناءِ المزارعين وكان وأهله في شوشتر (12) يُقيمون ، ومن هذا تعرفون إنهُ وأجدادَه كانوا من المزارعين الذين إحترفوا الزّراعة وفيها أظهروا البراعة. كان ذلك الخبر، بجلسةِ سمر في إحدى ليالي الصيف المُقمرة؛ فلقد روى لنا حينَها حديثاً إستغربتُه، واعتبرته من المستحيلات؛ لأن زمن العجائب قد خلا وصوتُ العقلِ قد علا؛ فليس مِنَ المعقول، اللعبِ على العقول والإخبارِ بالمجهول، وتصديقِ ما الآخرُ يقول، قالَ ذلك أبي وأردف متحدثاً:

إلا أنني سأورد ما كان وليس لي فيه مكان؛ فلقد أُخبرتُ عن أمرِ عُجاب، يستثيرُ الإعجاب، وما لي فيه مقالٌ أومجال، بل سأنقلُ إليكم ما سمِعتُ دونما تعليقِ للآمال، وليس لي فيه كلامٌ أو سِجال. وسأتُركُ لكم حريةَ التّعليق، لمعرفةِ الطّريق، وتبيانِ الخشنِ من الرّقيق، وتهيئةِ الوعرِ من الطّريق، وليكن الرّحمنُ بنا شفيق. على أني سأنقله إليكم من صديقٍ لصديق، وكلامُنا سيكونُ حقيق، وغيرُ الحقيقةِ، بنا لا تليق ... وإليكم الحكاية من البدايةِ حتى النهاية؛ أنقُلها إليكم كما سمعتُها وسمِعها أبي عن أبيه عن جدِّهِ، عن جدِّنا الأول والذي كان قد تحدّث وأكمل، بعد أن حَمِد الحيَّ الأزلي وإليه ابتهل، و حديثَهَ الشّيّقِ إستهلَ وقال :

بشُمهيون إدهيــي ربّـــــي (13)

باســماءِ الحـيِّ العـــظيم

كنّـا جالسين ولقدومهِ متلهفين، ولظهوره منتظرين، ولسماع أحاديثِه متشوقين؛ إنسانٌ إن ظهر، ظهرَ معه النورُ والسُّرور. بأحاديثِهِ نزدادُ حبور؛ فهو للخيرِ عُنوان، وهو للخبرِ لسان. معه، تنجلي الأحزان؛ بما يحملُ من جواهرِ البيان، مواعظَ وحكم يعجزُ عنها اللسان، لكنها مع هذا الإنسان، ستكون في خبرِ كان؛ فهو يُميطُ اللثام، عما جادَ به خالقُ الأنام، في سالفِ الزّمان. وسأحدثُكم عن خبرِ هذا الانسان، الذي حيرّ منّا الأذهان، وجعلَ أثرَه يُذكرُ مع القاطنين والرُّكبان وغدا ضيفاً عزيزاً في كلِّ الأوطان؛ لِما أبداه مِن عنفوان، ما جعلنا نحفظ إسمَه إلى أبدِ الأزمان.

وإليكم ما حصلَ وما كان، من هذا الرّجلِ الكثيرِ الإحسان، وما سأقصّه عليكم الآن، لأفضل بُرهان:

حلَّ بيننا فجأة قبلَ أعوام ثلاث، إلا أننا عاملناه دونَ إكتراث؛ فلقد كان يلبسُ كما الدراويش، وعلى طريقتِهم كان يعيش؛ فهو لا يحملُ معه زوادةً للطّريق أو متاعاً به يليق. أمّا إمرأتُه؛ فكانت كظله وبه لصيق؛ مما خلّف لنا بعضَ الضيق وهذا أمرٌ مما لم نكن لهُ نُطيق، لكنَّ ملابسَهما البيض، كانت طيبَةَ الرَّحيق؛ وهذا يعني إنهما يغتسلان، وإنهما نظيفان وما إنفكّا يتطهران، لكن لم نعلم حينذاك من يكونان، وعلى أي شيءٍ ينويان؛ لكنا -ومن بابِ العلم بالشيء- سألناهما : مَنْ تكونان، ومِنْ أينَ أتيتُما ؟ فانبرى الرَّجلُ و قال: { أنا راعيكم } ولم يزد ، أمّا إمرأتُـه فعن كلامهِ لم تحد، وعليهِ لم ترد؛ لذا لم نفهمْ مقاله، ولم نعلمْ مجاله ، وما عرفنا مقامه ، وما أعطانا فرصةً للإستعلام، فبدا الرّجلُ وكأنه لطلبِنا علاّم، و أمرُنا معه سيكون على مايرام؛ فإننا كنّـا بحاجة

لراع ولأغنامِنا يرعى، و لكن بموافقتِنا يحظى ! وبعد التّشاور، والتّحاور، جعلناه لشياهِنا راعياً، ولحلالنا حامياً، فكانَ كلَّ يوم بالأغنام سارحاً، لكنَّ فكرَه لم يكن سارحاً؛ فكان واعياً، ولخدمتِنا ساعياً؛ فغايتُه أن يحميَّ القطيع، وكيلا بالبريّةِ يضيع، ولتزدادَ أعدادُه في كلِّ ربيع؛ لذا اختار وزوجه بقعةً قريبةً من ماءٍ جار؛ فكانا [يرشمان فيها، ويبرخان (14)]، ورسمَ الحيِّ عليهِما يرسمان، وفيها يبيتان. والأغنامُ حولهَما تنامُ بأمان.

كانت إمرأتُه حليمة، وبحاجاتِه عليمة؛ فهي، لهما تعدُّ أكلاً شهيا، ذا رائحةٍ زكيّة، يفوحُ عطرُه في البريّـة، كانت له مطيعة، ولِما يطلبُ سريعة، فهي لطيفة وديعة. عارفةٌ بإمورِ الشّريعة، فكانت وكأنها شتاءَه وربيعه.

وحدثَ بعدَ حينٍ أمرٌ جلل، أحدث فينِا الخلل؛ فعندما لم يطمئن بالُ أحدِنا ؛ لذا بالرّجلِ الرّاعي زرعَ الظنون، وبفكرتِه هذه صارَ كالمجنون؛ مخافةَ أن يضيعَ مالنا [ولاحقاً هذا ما ادعى]؛ لذا جعلَ نفسَه مخبرا، ولعل أمَر خيانةِ الرّاعي إلينا يُحضر؛ فعادَ إلينا ذاتَ يوم وقد شغلَ بالَنا وهو يتمتمُ أكثر، وأقسمَ وأكثر، ونَفَسَه إنبهر وبكلامِه تعثّـر، وبريقِه شرق، وبعينيهِ حمّلق، ثم لهما أغلق، وأخيراً نطقَ وقال: لم أرَ في حياتي مثل هذا الفعل من أيِّ درويش؛ فهو يدّعي على الكفافِ يعيش، وحبّ الخيرِ في قلبِهِ يجيش، لكنّه سيسرقُ منّا حتى الحشيش! لا، لا إنه ينوي سرقَةَ الحلال، وكلامُه كلّهُ بطّـال، وسيكون وجودُه علينا وبال، لو أنَّ مقامَه بيننا طال؛ فليرحل عنّـا بالحال دون سؤال!

وحالاً في قلوبِنا وسوسِ الشّيطان، وفينا وجدَ له مكان، فقد كنّـا رقيقي الإيمان، ونصدّقُ كلَّ ما يُقال؛ عليهِ ولكي نتحققَ مِمّا قال، ولتهدأ السرائرُ ممّا بنا حال؛ بدأ جمعُنا إلى الرّاعي سائر، لا نحملُ البشائر؛ وأخيراً وصلنا الحضائر؛ فوجدنا الرّاعي يرشم، وعلى الملائكةِ يُسلّم، ولاحظنا أمراً يُثيرُ العجب؛ فلكي يحمي الرّاعي مالديه؛ فقد خطَّ خطّـا، ورسم دائرةً في التُّراب؛ فما اقتربتِ من الخطِ ذئابٌ، أو حطّ على أرضهِ غُـراب، وشياهنُا ما تبعّثرت في الشِّعاب، واحترنا! حقاً إنه لأمرٌ يُثيرُ الإستغراب، وتساءلنا بتعجّب: كيفَ يُوقفُ خـطٌ في التّراب ذئبـاً، ويمنعُ طيراً، ويضعُ لاغنامِنا حـــداً، ويمنعُ الأغرابَ من الإقتراب! لابدَّ أن هنالك سببٌ أو أسباب!

وانبرى أحدُنا للرّجلِ المخبر، وقال: لقد رأيتُكَ قبلَ أيام هنا تحوم! أ وكنتَ تُريدُ أن تخترقَ التُّخوم؟ لَكَم حاولتُ أن أعرفَ علامَ تروم! وها أنت الآن من الرّحمةِ محروم، وغيرَ نفسِكَ الأمّارةِ بالسوءِ لا تلوم، وسيكون غدُك مشؤوم، إنك، ولا شكَّ لصٌّ، وسرقةَ الشياه تروم!

أعناقَنا لوينا، وإلى الواشي سعينا، والفتكَ به نوينا، وقُلنا بصوتٍ واحدٍ غاضب: أ تُرى ياهذا أنك قد قلتَ حقـا! أنك لواهم، وفي الظهيرةِ نائم، وحتفُك أمامَك قائم.

وبعد أن تجمّعنا حولـه؛ فإذا به نحو الهزيمةِ ماشي، واختار من الحيطان الحواشي، وأسرعنا إليهِ؛ نحاولُ أن نخمدَ بأسرع وقتٍ أنفاسه، وبذا لن يستطيعَ أن يستبدلَ حياتَه بماسة، لكنّه على ركبتيهِ خرَّ، وبيديهِ أرادَ أن يتقيَّ الـشّرَّ.

وفي آخرِ لحظة، سمِعنا الرّاعي يقول، بصوتٍ حازم ، وله غيرَ كاتم : اتركوه؛ فالشياطين قد ركبوه، ولن يفيدَكم إن أنتم خنقتموه، دعـوه؛ فلن يزيدكم فخراً إن آذيتموه؛ ألم تقرأوا، أو ألم تسمعوا ما قالَ نبيُّ الرحمة، إنَّ في تعاليمه لحكمة، لقد قال نبيُنا العظيم يحيى بنُ زكريّـا * مبروخ ومطروس * (15) : { من يُقدمُ أن يفقأ عينيهِ بنفسهِ؛ فلن يجدَ من يكون له شافيا . } (16) أم لم تسمعوا قولَ نبيِّ الرّحمةِ وهو يوصينا:

{ ويلٌ لسيئ القلبِ الذي يُغريه السوءُ القابعُ في داخلهِ لإرتكاب السيئات ؛ إنه سيلاقي مصيرَه المحتوم في يوم النهاية العظيم } (16)

أ ولم تفهموا قولُهَ الكريم : { ويلٌ لمن رُزق طيباتُ الحياةِ ولم ينتفع بها، بل قادتُه إلى ارتكابِ السيئاتِ؛ فأثقلَ نفسَهُ بالذنوب، إنّه سيُحاسبُ يومَ يحينُ الحسابُ العظيم } (16)

أ ولم يُوصِنا عليهِ أفضلَ السّلام:{ إنَّ هذا العالمَ زائلٌ وأعمالُه باطلة ؛ فمن أضاعَ الذّهبَ الثمينَ ، يبحثُ عن الفضةِ دون جدوى } (16) أوما سمعتم نبيَّنا الأكرم وهو يُوصينا { أيُّها المختارون ، إثبتوا ، واحتملوا جورَ هذا العالم بقلوبٍ نقيةٍ مفعمةٍ بالإيمان... وكلُّ من حَفِظ نفسَه لا شبيهَ له في هذا العالم } (16) .إخواني: أن ما حدثَ لشيٌ فضيع، وأجرُكم عند اللهِ لا يضيع؛ فاحتسبوا وارجعوا عما عزمتم عليه. وما سمعتموه من نصوص [دراشا أديهيا] (17) جُزءً يسيرُ من تعاليم نبينا العظيم، وهو غيضٌ من فيض، لكني أقول: من اللهِ العوض، وعليهِ العوض؛ فهو من يُحيِّ، وهو من يُميت؛ فذا رجلٌ أرادَ أن يشتري بما لا يملِك ؛ فخَسِر ما كان يَملِك؛ لقد شراه الشّيطان؛ فخسِرَ الرّحمن. وبعد برهةٍ، أكمل : لقد سمعتُ من أبي قولَ نبي الرّحمةِ، يحيى بنِ زكريّا عليهما أفضل السلام { كلُّ مَنْ يعشقُ الذّهبَ والفِضّة ،وكلَّ ما طاب، دون أن يَعملَ لكسبِها بشرفٍ، يموتُ مرتين} (18) أو قولَه الكريم : {الرّجلُ المتلّون يكسُوه الظلام ، ويُغشّى بحجابٍ أسود ، وينتعلُ الجمر، ظلامٌ أمامَه ، وغُمّةٌ وراءَه، وعلى جانبيهِ الجنُّ والشّياطين، ويبقى قابعاً في دارِ العقاب، وصباغتُه (18) لا تشفعُ له، لكم نُوجّهُ كلامَنا ولكم نوضّح؛ كونوا كالمختارين الصالحين الذين يشهدون للحياة؛ فلا تعملوا منكرا، ولا تنحدروا حيثُ الظلام .. رددوا معي: يالهي لا تحرمنا من رحمتك} (19).

هذا ما قالَه لنا الرّجلُ الرّاعي بوضوح ، وإلينا بكلامهِ اللطيف ردَّ الرّوح، واندمل ما تفتّح فينا من جروح. وأشار إلى الذي حاول أنْ يعملَ عملاً شائناً وقال: إياكَ والنّميمة؛ فأنها عادةٌ ذميمة ، ولن تجنيَّ منها إلّا الشتيمة، وهي ولاشكَّ في ذلك، من الأعمالِ اللئيمة، وليس فيها غنيمة، بل هيّ غُمّةٌ لعينة. وما أظنك إلّا فقدتَ الصواب ، لطرقِك هذا الباب؛ فتلقيت َهذا الجواب، المملوءَ بالعتاب، وما أظنُّ قومَك يُريدون لبيتِك الخراب ولايُحبّذون لك الإغتراب.

زادَ براعِينا الإعجاب؛ فلقد خلبَ منّا الألباب؛ فما توقعنا منه هذا الجواب، وتمنينا أن نكون عنده طلاّب؛ لننهلَ بعضَ مِمّا عندَه من حكمة، بلا منّـةٍ ولا عِتاب، أو شكٍ أو إرتياب.

لكننا إلى الواشي نظرنا، وإليهِ توجهنا وقُلنا: أنظر بعينيك: ألا ترى الشّياهَ كلّهَا لأوامره تُطيع، ألا تراها في حِرزٍ منيع. إرحل، كيلا دمُك بيننا يضيع، ويكون موتُك على أيدينا شنيع، إرحلْ أيُّها الوضيع؛ فلقد خذلتَ الجميعَ بهذا الصنيع، لقد أضحكت عليك حتى الرضيع. نعم، لقد وضح الأمرُ يامن بأفعالك غريق ، لقد أردتَ أن تَسرِق، وها هي الحقيقة تبرق، لكنَّ الرّحمنَ روحَك سيحرق، ويُجزيك ما تستحق؛ لما سببت لهذا الرّجلِ الرّقيقِ مِن ضيق، إنك وحقّ الحقِّ للشّيطانِ رفيق.

كرّتِ الأيامُ متسارعة، ومرّت كما يمرُّ الرَّباب (20) ، وإذا بالخيرِ يدّقُ الباب؛ فزادت بوجودِ الرّاعي وزوجتِه غلّتُنا، وزها محصولنُا، وتفتحت في بساتينِنا شُجيراتٌ كانت، جافةً يابسة، فأضحت خضراءَ يانعة، وبما تحملُ رائعة؛ فلقد غدتْ مُحمّلةً بأطيبِ الثّمار، وإليها إتجهت الأنظار، ومنها العِدى غار، وتكالبت علينا قِوى الشّرِّ والأشرار، ومنهم العقلُ حار؛ فكيف يغدو ما كان هشيما، ليُصبحَ نعيمــا!

لقد بات خيرُنا مطمّعاً للفُجّار، وكأن تحتَهم شواظ نار. لكن، لم يُظهر الآخرون ما كانوا يُضمرون؛ فهم في سرِّهم علينا ناقمون، وللغدرِ بنا جاهزون؛ وكانوا للفرصِ يتحينون، وبنا يتربصون، لكنَّ أرضَنا المعطاء، لم تأبه للسفهاء؛ فكانت لنا مصدراً للرّزق الحلال؛ ففيها قمحٌ، وفيها تينٌ، وفيها رطبٌ يملأ السِّلال.

ذات يوم قال الرجلُ الراعي لإمرأةٍ كبيرة في السِّن، طيبةِ اللسن: الظلمُ لا يجوز، وغيرَ التّرابِ في موتنا لا نحوز، وأذا أردنا بالآخرة أن نفوز؛ فعلينا أن نعمل بلا ذهبٍ أو كنُوز. قال ذلك بعد أن جاءته المرأة تعبة، وهي تبحث عمن لها يكتب كتاب { الگِنزا ربّا }المقدّس (21) لكنها لا تملِكُ في بيتِها ما بثمنِه يُقيم، والنقودُ كانت لها غريم ؛ فليس لديها مال، وضيقُ اليدِ بها قد مال، وتخافُ أن تصيبَها الأهوال؛ إن خلا بيتُها من كتابِ دينها القويم ، والحيُّ الأزلي بحالِها عليم . فَهِم الرّجلُ الرّاعي، وهو الذي كان دائماً للخير ساعياً، وإلى ما يدورُ حولَه واعياً، وبدل المالِ والحلال، طلب منها حبراً وقلماً وقرطاس؛ فثمنها بخس، وهي بالفلوسِ لا تُقاس؛ فكتب لها ما تُريد، وكان الحيُّ الأزلي على عملِهِ المتقنِ شاهدا، ولأكرامه واعدا.

وبعد إن إنتهى من كتابة الكنزالعظيم، ختمه؛ بأن كتب إزهاراتٍ **(22)** ذكرَ فيها حوادثَ ذلك العام، والأمورَ التي مرت من اليمنِ الى الشّام، والبركـةَ على الصابئة المندائيين العارفين بالله العظيم كيف حلّت، وبخطٍ جميلٍ كتب: **{** إذا ضاقَ بِكُم الحال؛ فأني في مندلي من أرضِ العراقِ حال، ولكم سأكون رهنَ الإشارة؛ عليه فأني أنتظرُ منكم الأمارة لأميطَ عنكم الغُبارة**!** **}** ولم يُضف شيئـاً غيرَ تلك العِبارة.

وكان وكأنه ينتظر هذا العمل؛ فبعدها إصطحبَ زوجَه ورحلا، وكأنهما بيننا ماجاءا وماحلّا. وبعد أن تسلّمنا شياهنا، رأيناها وقد سمنت، وأعدادُها ربت و زادت. وقال جدّنا الأعلى: لقد عَلِمنا بما كتبَ الرّاعي وبما قال، عندما ألححنا على المرأة بالسؤال. وفي هذا المقام سيكون لنا مقال ، لتبيان ما بنا سيكون حال ؛ فدوام الحال من المُحـــال ؛

فقبل أن يكتمِلَ ذلك العام، صارت الأيامُ وكأنها دهورٌ طِوال وتغيّرت مِنّـا الأحوال، وانهارت منّـا الآمال؛ والسّوءُ بنا من كلِّ جنبٍ حال، والقهرُ بنا طال، والحظُ بنا قد مال ولم تُفِد الأموالُ في درءِ الأخطار؛ فلقد وقع فينا ما جعلنا نحتار، وليس لنا فيه اختيار؛ فعابدُ نارِ ظالمٌ بيننا قد ظهر، ولديهِ من البدع أربعُ: أسدٌ، وبساطٌ وأفعى ورابعهُم حائط**!** عِبادةُ دينهِ منّا أراد ، وإلى تركِ دينِنا أمر، وإلّا سيأكلُنا أسدُهُ أو تنهشنا حيتُه، أو ينطبقُ علينا حائطُه، أمّا بساطهُ ففيهِ العجب.

مهلتُنا أربعون يوما، والموتُ بعدها حتمـا، أو نعبدُ النارَ رُغمـا، ولم يكُ يُظهر لنا عابدُ النارِ ودّا. ولما لم نجد أمامَنا المخرج ،علا بيننا الهرج، و لم يعد لدينا أملٌ في الفرَج؛ لذا تولانا الحرج؛ فإتجهنا لطلبِ المشورةِ من كلِّ صغير و كبير ،صعلوكٍ أو أمير، فكُنّا،وكأن الجميعَ بالجميع يستجير؛ بل وكأننا نعيشُ في السّعير ، وفجأة ظهر لنا المُجير ؛ وما كانت سوى إمرأةٍ قد خطّت على وجهها السنون الأنهار ، وتيبّست على حدقاتِ عينيها الأسرار؛ فبدت وكأنها قد جفّت وجنتاها، وعرورقت يداها ، والزّمنُ قد أرهقها وأضناها ، وكانت تحملُ إلينا لفافةً بيضاء، يشعُّ من جوانبها الضياء ،واتضح لنا كتاباً ملفوفا ، بجوانبه النورُ محفوفا ، وهي واثقةٌ ، بأنها تحملُ الكنزَ الثّمين .

و بصوتِ الواثقِ القمين **(20)**، قالت : إليكم ... هذا **{** الِكـنزا ربّـا **}** إقراؤه؛ فالرّاعي فيه كتب، ولم يطلبْ مني الـذّهب؛ بل قِرطاساً وقلمـاً وحِبراً طلب، وأوصاني: [عندما يشتدُ بينكم الخطب، و تتحولُ أشجارُكم إلى حطب، ويبـسُ عندكم الرُّطب؛ فإني رهنُ الطّلب، فسأوقف العطب، وبقدرة الحيِّ القادر، سأُوقف الغادر]. ثم إلتفتت المرأةُ إليهم ثانية، وأتمت بلهجةِ مَن يمتلكُ الوثائِق، وقد تهلل وجهُها وبدا صافٍ ورائق، وبصوتٍ رقيقِ عطوفٍ سَمِعناه جميعـاً، وما تخيلناه يصدرُ منها قالت:

إقرأوا، إقرأوا ... فتجرأ أحدنُا، وقرأ على الملأ: **{{**إذا ضاقَ بكمُ الحال؛ فأني في مندلي من أرضِ العراقِ حال، ولكم، سأكون رهنَ الإشارة؛ عليه فأني أنتظرُ منكم الأمارة لأميطَ عنكم الغُبارة.**}}**.. وما أن إنتهى من القراءة؛ حتى إرتعبَ الصابئة المندائيون المقيمون في شوشتر من أرضِ إيران الآن، ومن الحلِّ خافوا، لكنْ، ما كان أمامَهم مفر، ولا بُدّ الإنصياع للأمر؛ وإلّا سيكون مصيرُهم الضياع. ظهر على وجوهِ القوم الوجوم، وكأن السّماءَ إكفهرّت وتلبّدتِ بالغيوم، وطغى على وجوهِ اؤلئك الوصب؛ مما حاقَ بهم من تعب؛ فالرّاعي هناك، والحلُّ في مندلي موجود، ونحنُ في شوشتر؛ هو في الغرب، ونحن في الشرق، وبيننا بونٌ شاسع، والمسافرُ إلى هناك ضائع؛ مِن كَـثرةِ العراقيلِ والموانع، ونحن هنا قد ضاقت بنا المرابع، وزادت علينا المواجع، لكن، وكيلا نيأسَ ونقول قد خلتِ الحلول، بل و مهما كان الحلُّ صعباً، أو مرذول؛ فهذا الحلُّ قد يكون هو المقبول؛ وليس عيباً إن عليه نعول**!**

وعليه عقدنا العزم؛ فإننا إلى هذا الرجلِ متجهون، وإلى مشورتهِ محتاجون، وعلى قولهِ راكنون . وعليه إختار القومُ منّـا أربعةَ رِجال، كنتُ أنا رابعَهم، وإلى طريقِ مندلي راشدهم ؛ فشددنا الرِّحال، والطريقُ بنا قد طال، ولم نصلْ إلّا بعدَ ثمانٍ وثلاثين ليلةً طِوال، ليلتانِ والموتُ بعدها بأهلينا حـالٌ لا مُحال؛ فالصابئة، لن يعبدوا النارَ بأي حالٍ من الأحوال؛ فهم لم يعبدوا ولن يعبدوا غيرَ اللهِ ذي الإكرام والإجلالِ. وقال أحدُنا للآخر: لقد

حسِبناهُ راعيا، حين أتى وحين مضى؛ فهولأغنامنا رعى، ولجمع الأموالِ ما سعى، لكنه قال: أنا راعيكم؛ فما عرفنا مغزاه، ولم نفهم مبتغاه، فكأنه لؤلؤة في محارة، مُنغلقٌ على أسراره، إلّا إننا عرفنا من العجوز متأخرين أنه سيكون منقذنا، حينما قرأنا ما كتب؛ ولهذا حماسُنا إلتهب. تباً للرَّجلِ عابدِ النّار، الذي ظهر بيننا وسوّد الآمال، وقرر أنه سيذيقنا الأهوال؛ إن لم نجبه لِما قال...وخطر ببال أحدِنا سؤال: كيف عرف الراعي أننا سنواجه مثل هذا المشكلة ؟ بل من هو الذي اليه إتجهنا، وأمرَ إنقاذِنا إليه أنبنا؟ أنه حقاً لأمرٌ مُحيّر، وسبحان الله الذي للأمورِ مغيّر .

وتساؤلٌ آخر بيننا طفا، أيمكننا بيومين نعود، ونصلُ في اليوم الموعود أو أنها ستكون مجردُ وعود! وهل الّراعي سيكون هو الحامي، وحسب الطلب بنا سيعود، بعد أن يجتازَ بأقل من ليلتين الحدود، ويتغلّبَ على الأمطارِ والرُّعود! ونحن الذين حملتنا جيادٌ سابقتِ الرّيح، ولم يكن سفرُنا مريح، أيمكن أن نعودَ على بساطِ الريح!

لكن ... لم يبقَ لدينا سوى ساعات؛ لنصدّقَ الاشارات؛ بأن من يفك عنّا الأزماتِ آت، و بمشيئة الحي الأزلي سيُوقفُ الحسرات.

ووصلنا إلى التخوم وعن رجلِنا سألنا، وللآخرين وصفناه، وتمنينا ، بلا تأخير نراه! وإذا بأحدِهم إلى بابٍ كبير يُشير؛ فركِضنا إليه، وكأنَّ واحدَنا إليه يطير؛ وها نحنُ الآنَ وصلنا، وإزاءَ البابِ وقفنا، وأخيراً، طرقنا الباب، فانشقَ الباب، وظهرَ لنا رجلٌ مُهاب، يبلسُ الأبيضَ جلباب، ويعتمُّ بعمامةٍ ناصعة، يخلبُ بياضُها اللألباب، ظهرَ، وظهرت معهُ هالةٌ من وَقار، ومنها عقلُنا حار، لقد عرفناه في الحال؛ إنه راعينا! نعم إنهُ راعينا وسيكون بلا شكٍ حامينا، ومن هذا إرتاح البال، ولم ينتظر منا الرّجلُ الجواب؛ فلقد قابلنا بالتّرحاب، وعنّا أزال الرِّهاب وقدّم إلينا العِنبَ والأرطاب، ومِن الأكلِّ ما لذَّ وطاب، وهو يلهجُ أثناءها بذكرِ الرّحمن، الكثيرِ الإحسان ولم يكن يقولُ لنا إلّا ما يُريحُ الأبدان، إستقبلنا الرّجلُ الأكرم، واستبقنا بالكلام، وقال لا بأسَ عليكم؛ فأنا كافيكم، ولن يكونَ السّوءُ فيكم، وكأنه يعلم ما نحن فيه، فضحِك ملءَ فيه.

وتملّكنا الإستغراب؛ فلقد تبيّن لنا إنَّ الراعي بحالِنا عالم، بل كان وكأنه للغيب علّام؛ لذا أردف قائلاً، وهو يزمُّ شفتيه، ويقطبُّ حاجبيه وكأنه يتوقع الأمرّين:

- قد فعلها إذن الذّي للنار عابد ؛ فهو ظالمٌ حاقد وهو للشّرِّ واجد ... وبعد بُرهةٍ من الصّمتِ الكاملِ أكمل ، وهو في عيونِنا ينظر: ماذا يُريدُ عابدُ النّار ؟ أ ويُريدُ مزيداً من الشرار! أم إنَّ العقلَ منه طار! و هل يُريدُ لكم من الدِّيار الفَرار؟ واللهِ ربِّ البيتِ المعبود، سأعبرُ إليه الحدود وسأنفيه من الوجود؛ فهو لأعمالهِ غيرَ محمود، ولفعلتهِ الرعناء هذه في المستقبل لن يعود، وسيكون عبرةً لمن لا يعتبر، وغير الذُّل بعونِ الحيِّ الأزلي لن يختبر، وإني بقدرةِ الحيِّ القديم الواحد، إليه عائد، ولأفعالهِ الشنيعةِ وائد، وسأكون لأفضالِ ربي حامد، ولنعمائهِ ساجد ، وبعون(منداهيي) **(23)** الماجد؛ لأكونن لكم درعا، ولطريقكم مرشدا.

ثم إلينا توجه بيديه، ووجهه كلُّه بشاشة، ومنّا أخذَ الحشاشة: والآن، كلوا واشربوا وارتاحوا قبل أن ننطلق، وإلى الحقِّ نستبق، والمُرَّ إلى الآخرِ نُذق ...فبعدَ العصرِ المسافاتِ نخترق! ...

كان أحدُنا ينظرُ إلى الآخر، وقولَ هذا الرّجلِ لا يُصدّق، لكننا، كنّا بوجهِ الشّيخ الوقورِالطيّبِ باهتين ونحدّق؛ أبالجوِّ نحلّق، أم أجحنةً لنا سيختلق!

ثم قال الراعي: ناموا قليلا؛ فسيكون الهواءُ بعد قليلٍ عليلا، ولن يبيت أحدُكم حزينـا. هذا ما إلينا قال، ومن مقاله إنشرح الحال. إلّا إننا وقبلَ أن نهجعَ وننام، طلبنا أن نتعرّفَ على الرّجلِ الحليم، والذي بحالنا كان كالعليم، ومن ذا الذي إليه إتجهنا، وأمرَ انقاذِنا إليه أنبنا؛ وأنفسنا إليه حملنا فقال: {أنا آدم بر نو } **(24)** ، فصحنا جميعاً : أنت الريشمّة آدم أبو الفرَج ! وباذن الحي الأزلي على يديك سيكون الفرَج؛ وعندها فقط ، زال ما كابدنا من حرج.

إذن هذا هو الرِّيشمّـة **(25)** الموصوف، والذي على المحتاج يطوف ، والذي تعرفُ فضلهَ جميعُ الأُمّـــــة ، إلا إيانا؛ فكنّا عن الأخرين بعيدين،ولسنا بغيرنا مهتمين . وقلنا وكأننا واحد: حقاً أنَّ هذا الرجلُ سيكون والينا وهو بلا شكٍ حامينا.

غفونا غفـوةً عميقة، لم نعرف مدتها؛ بعد أن كابدنا من الرِّحلةِ شدّتها، أفقنا بعدَها وصوت آدم أبو الفرج نسمعهُ وكأنه قادمٌ من غورٍ عميق، والكَـنِزا إلى عينيهِ لصيق، وهو يقرأ بصوتٍ رقيق، ما سمعنا مثله من قبلُ. وما إن إنتهى من قراءتِه وترديده؛ حتى أشار إلينا بأن نرشم ونبرخ وللحيِّ الأزلي المغربَ نصلّي وهمومنا نُخلّـي.

وما إن انتهينا؛ حتى جلسَ القرفصاء، وجعلَ نفسَه كالكرسي، وطلبَ منّـا أن نركب؛ إثنان فوق متنيهِ، والآخرانِ على رُكبتيهِ، وعزّمَ وأطال، وأكثر المقال، ثم همسَ إلينا وقال: أغمضوا عيونكم، ولا ترفعوا رؤوسَكم؛ فبعدَ ساعاتٍ ستكنون في بيوتكم.

وما قال لنا الرّيشمّـة فعلنا، وأوامرَه إلينـا أطِعنا، واستكنّا ما استطعنا. كان الهواءُ خلالها كالأنسام، يمسُّ وجوهنَا بشكلٍّ مريح وكأننا في حلم من الأحلام؛ مما جعلنا في بعض الأوقات ننام وكأنَّ فراشَنا مصنوعٌ من ريشِ النّعام.

بعدَ حين، صوتَ آدم أبو الفرج سمِعناه يقول:

الآن افتحوا عيونَكم؛ فإلى القريبِ من بيوتِكم وصلنا، ونظرنا حوالينا؛ فكانت معالمُ ديارِنا عن بُعدٍ تلوح ، وإلينا ردت الرّوح ؛ لذا تيقنّا أن الله أرسلَ مُنقذنا؛ لذا فرحِنا وهللنا، وقلنا إننا ما ضعنا، بل الفرج إلينا قادم، وعابدُ النار سيكون لمقدمهِ نادم، وسُنفرِح أهالينا؛ بعودة المنقذ آدم أبوالفرج والينا.

جلسنا بين أهالينا ، والفرحُ بيننا قِنطار، والخبرُ الى عابدِ النّـار قد طار؛ فتقدّحت عيناه شرار، لكنه لربّما مع نفسه فكّـر وعلل، ومع نفسه هلل، وخمّن ؛ فلعلّه يكسب الجولة، ويُرغم الصابئـة من حولَه الدّخولَ في دينهِ المختار؛ عبادةِ النار ، أو عليهم الفرارِ من هذه الدار، لكنّه للحوار يجب أن ينصياع؛ فئن رفضه فمصيره الضياع، وغـــداً سيكون وقت النزال، وسينتهي النِّزال، مهما الزّمنُ طال بهزيمة المندائيين على كلِّ حال؛ ففرِحَ بهذه النتيجة؛ فلم يبقَ سوى ساعات؛ لتحقيق الأمنيات؛ فالنصرُ آتٍ في جميع الحالات. نعم، إنّه لا محالةَ لآت .وسيعرف المندائيون حينها معنى الشَّتات!

خرجنا جميعاً مبكرين، ولِما يحدث منتظرين. وبعد حين، علت عن بُعدٍ غُبارةٌ كثيفة، وأصواتٌ عاليةٌ مخيفة، غطّت ما حواليها، وهي تتقدّمُ إلينا باضطراد. وانكشف الغُبار، وظهر محملٌ مُهيب، بمنظر عجيب، يحمله ثمانية رجالٍ غِلاظ، وخلفَه رهط من قوم كِثار، لحاهم حمراء، بلونِ النّـارِ مصبوغة، ومِن نورِ اللهِ محرومة. شعرُ رؤوسِهم أشعثَ مُغبّر، كأن الماءَ لم يمسّهُ من سنين، والماءُ لرؤوسِهم يشتاقُ بحنين. جاؤا، وهم يرفعون البنودَ والأعلام، وفي وجوههِم يلوحُ الموتُ الزؤام، وبالنّصرِ تُراودهم الأحلام. زعيمَهم يناصرون، ومِن أزرِه يشدّون، وله يشجعّون؛ ليُظهرَ سحرَه.لقد كان الصابئة بنظرهم عن الدِّين مارقين، وعن العرف خارجين. كان عُبـاد النّـاربمرح يصفقون، وبجذلٍ بأغانيهم يترنمون؛ فهم من إنتصار زعيمِهم واثقون، وبالغنيمةِ موعودون، وبها لا محالةَ راجعون.

كانت طبولُ عُبّادِ النّارِ تتعالى، وحشودُهم باندفاع تتوالى، وبخدمة رئيسها تتفانى، والتضحيةِ بالنّفسِ لا تتوانى. مشاعلُهم بالنّار تزهو، وأصواتُ القرع على الطبولِ تعلو. وفجأةً، خيّم هدوءٌ عجيب، حتى لتكاد تسمعُ صوتَ الدبيب، وهذا بالأمر الغريب؛ وذلك حين أطلَّ رأسُ رئيسهم، وبينَ الجموعِ أدارَه بخُيلاء، وكأنه من أعاظم العظماء، لكننا تخيلناه وكأنه طاؤوسٌ بأرجلٍ سوداء، وعيونِ عمشاء، وهو أَحَيْمرٌ أبرش، يبدو وكأنه من قرع الطبولِ أطرش. لكن وما أن وطأت قدماه الأرض؛ حتى أوقد أتباعُه النّيران، وارتفعت صيحاتُ الإستحسان من كلِّ عُبّـادِ النار، بعدَ أن تطايرَ منها الشّرار، فهذا هو يومهم، وسيكون بعدَ الإنتصارِ عيُدهم.

المندائيون ساكنون، وبقلقٍ ساكتون، بعيونِهم ينظرون، وهم لايتكلّمون، كيلا يتركوا لعابدِ النّار وقومِه من حُجّـةٍ عليهم ... كلُّهم عيونٌ تتطلّع؛ ينتظرون ما سيكون. شفاههُم جفّت، وجِباههُم ندّت، والعرقَ منها بغزارةٍ صبّت .. قلوبُهم مع الطبولِ تقرع ، وإلى الواحدِ الأحدِ تتضرع، وإليه من ظلمِ الإنسان تتوجّـع، وعنده لارواحِنا تتـشفّـع.

كان الرِّيشمّة هادئ، وبخصمهِ غيرَ عابئ؛ لأنه يعرفُ ما لديه، ومؤمن بإنَّ اللهَ سينُصرُه عليه.

كسر الرّيشمّة صخبَ الجموع؛ عندما بيدهِ اليمنى لرئيسِ عُبادِ النار أشار؛ بأن يتقدّم ليريِه ما حَفِظ من الخدع، ومن السّحرِ ما تعلّـم. ولــه قال:

-أرنا ما لديك؛ لنردَ بعونِ الحيِّ الأزلي عليك ؛ فما أنتَ سوى ساحر، وبعقولِ الآخرين ساخر، وشرَّكَ عليهِم شاهر، وأنكَ بحقِّ الرّحمنِ لخاسر. هيّـا أيها الشّاطر، أرنا فيما أنت فيه ماهر، لكن ، تيقّن، سينقلبُ السّحرُ على الساحر!

فإذا بعابدِ النّـارِ ينتفضُ ويقولُ بصوتٍ عال ؛ أراد به أن يبدأ النزال، وليُريَ الآخرين بأنه في أحسن الأحوال:

-لدّيَّ أسدٌ ، متى ما أمرتُه ، بأمري يأتمر، والموتُ من بينَ أنيابهِ ينتشر، وأقواكم بين فكيّهِ يحتضر. هاهو إليكم قادم ، ومن يتقدّم إليه نادم، وبنجاتِه حالم. وحالاً ظهرَ بين الجموع أسدٌ، له زَئيرٌ يسدُّ الآذانَ سد؛ فما وقفَ بوجهِهِ أحد، لكنَّ آدم أبو الفرج كلّمـهَ، ومكانـهَ الصحيحَ أعلمه وقال: إرجعْ من حيث أتيت؛ فمثلك حيوانٌ بيننا ما رأيت، عُدْ لغابتِك، وإلّا ستكون هنا نهايتُك. الرِّيشمّة على الأسدِ إستأسد، وغضبَه عليه اشتد؛ فنكصَ الأسدُ على عقبـيهِ، وولى هاربا، فأراً مذعورا وإلى غابتِه إرتد. أمّا نحن؛ فتنفسنا الصعداء؛ فلقد إنهزمَ أوّلُ الغُرماء.

-والآن أرنا ما عندك غيرَ هذا؛ فرمى عابِدُ النّارِ عصا، وقال : كوني أفعى ، فكانت أفعى وللآخرينَ بالهلاكِ تسعى:

-إنهشيهم والهلاكَ أرِيهم، وسُمُّـكِ اسقيهم ، هُم وراعيـهم.

قال لها ابو الفرج ولم يكُ ذا حرج ومن فمهِ هازئاً القولُ خرج: أيتُها العصا، مثلك الأوامرَ يخشى؛ فما أنتِ سوى غُصنٍ مكسور، ومن الدّودِ مأكول، وكنتِ في شجرةٍ هاوية، ولستِ للخيرِ حاوية، وما أنتِ بأحسن من سعفِ نخلةٍ ذاوية! عودي كما كنتِ، وأمرَه إليه رُديّ، ارجعي عصا ولا تتحدي ! فعادت كالغصنِ النّحيل، مع النّسيمِ تميل.

-أيُّها الحاوي ، أرِنا ماذا جرابُـك حاوي؟ أم تُراكَ للثّرثرةِ غاوي! قالها بزهوٍ محبب؛ ليس فيه خيُلاء، بل فيه شموخُ النبلاء، وسماحة العُقلاء، وتواضِعُ الحُكماء. فأجابه الرّجــلُ بكبرياءٍ مملوءٍ بالرِّياء، ولا يخلو من الدّهــاء :

-لدي حائـطٌ، لكنه ليس كبقيةِ الحِيطان؛ إنهُ كالحِصانِ الجامح، أو كالفارسِ الرّامِح، يعدو حيث أريد، والقولَ عليَّ لا يُعيد، يرفسُ من أشاء، ومن حافريهِ ينقضُّ القضاء، إحذروا، إبتعدوا؛ كيلا يصيبَكم منهُ البلاء.

-هيّـا أيَّها الحائط ، أرِهِم كيفَ أنتَ برؤوسِهم تحتَ التُّرابِ ضاغط! قفزَ الحائط؛ فإذا به حِصانٌ جامح، أو سهمٌ راعش، يقفزُ ويرفسُ كالحيوانِ الطائش.

-هزَّ آدم أبو الفرَج يديهِ من عابدِ النارِ، ومِمّا لديه، وهو بالحائطِ ساخر، وقال مخاطباً الحائط: أنت حائطٌ ومن الطينِ مصنوع، وواجبُك حمايةُ الرُّبوع، فكيف تعدو وتكسرُ الضلوع! إجمـدْ والعودةُ لما كنتَ عليه أحمد، وما أنتَ من الآخرينِ بأسعد.

فماذا تقول يا عصفور؟ فسقط الحائطُ كالطّينِ المفخور.

رفع الرِّيشمّة رأسَه ويديهِ إلى ربِّ السّماء، شاكرا حامدا وإلى عابدِ النارِ عامدا، وهو يتلو((البوث)) **(24)** البيّنات ومن الرّحمن يطلبُ الثّبات، حيث قال: والآن أرِنا آخرَ ما لديك، وإلّا بالهزيمةِ الآنَ سنحكمُ عليك.

- قال عابدُ النار ومنه العقلُ حار؛ فلم يعُدْ في جعبتهِ سوى بِساطٍ عتيق، مُحاكٌ من صّوفِ رَقيق، وهوللتُّرابِ شقيق ؛ فبه من كلِّ الأركان لصيق :

- عندي ... عندي بساطٌ على وجهِ الأرضِ يطير، وفوق الماءِ يسير، وحيثما أريدُ به لا أحير، وحينَ عليهِ بالقتالِ أشير؛ ينقضُّ كالصّاعقةِ في اليومِ المطير.

وإذ ذاك توجّه بنظره نحو الذي سينقذه؛ فارتفع البساط، وبتبريكاتِ عُبّادِ النّارِ مُحاط، وعلى سطح الماءِ طار؛ فركِبَه عابدُ النار، وفي الهواءِ دورتين ِدار.

وحالاً أمرَه أبو الفرج؛ فسقط كما تسقط الأحجار؛ فلقد أسرَّ لـه بصوتٍ خفي، وإليهِ أشار: أنت من صوفٍ مغزول، ومن الحريرِ معزول، إرجع كما كنتَ؛ فأنتَ وإلى الأبدِ مشلول. وقتـذاك، في النّهرِ عابدُ النّار سقط، وابتلَّ من مفرقهِ حتى القدمين، ولم يدرِ كيف يرد؛ فكلُّ حججِه بطئلت، وكلُّ ألاعيبه خابت؛ لذا ولكي يُحرجَ {أبـو الفرج} ويسدَّ عليه أيَّ مخرج ، طلب منه ان يُريه ما لديه؛ فقالَ للشّيخِ الجليل متحديا:

- أرني أحسن ما عندَك من السِّحر ؛ ليكون بيننا الفاصل، وعندها نعرفُ الحاصل، فماذا أنتَ ياعجوزُ فاعل؟ قالها بصوتِ المتحاملِ المتخاذل.

قال الرِّيشمّـه ومن الحيِّ الأزلي العظيم العزمَ إستمد، وعلى عابدِ النّارِ إحتد: ما أنا بساحر؛ لأن اللهَ بيننا حاضر، ولن أُريكَ الكثير؛ كيلا عـقلـك مما عندي يطير، وأرجو منك ألّا تَحير؛ فكما ترى، لا يُوجدُ في الجوار نخلٌ ولا تَمْر، ولا توجدُ في السّماءِ سحابةٌ تَمُر، وليس في الجوِّ طيرٌ يَمُر؛ لكنْ، ستأتي بعدَ قليلٍ حمامةُ زاجِل، ومنها سأطلبُ الطّلبَ العاجل؛ فانتظر يا عابدُ النارِ بُرهة.

وماهي إلا لحظات، حتى كان الطيرُ الحرُّ على كتفِ الريشمّة يحـط، ويقف شامخـاً ولا يشط.

كان عابدُ النّار بقلقٍ يرقُب، وأخماساً بأسداسٍ يضرِب، ويرسمُ على الأرضِ رسماً ويشطب، كان كالفأرِ المضطرِب، بل كمن نفسِهِ يحترب، ومكراً من الشّياطين يجتلب، وفِعلةَ الطّيرِ يرتقب، وخلفَه مريدوه واجمون، وبقدرةِ زعيمِهم شاكّون؛ فلقد توقفَ الطبلُ والزمرُ وهمَّ البعضُ بالإنصراف، ورؤوسُهم في الأرضِ منكسةٌ كالخِراف، لكنهم، إلى المكان عادوا؛ فلربّما يفوزُ زعيمُهم ، وبعدها يعلنوه رئيسَ الأمتين ؛ فلاشك له ستكون الغلبة والإنتصار، قبل أن يأفلَ النهار؛ ليجرجرَ بعدها المندحرُ المنهار، أذيالَ الهزيمةِ والانكسار!

كان الشيخُ الجليلُ وقتذاك، نَشِطـاً متيقضاً ما تعب، بل للنّهر قد ذهبَ، يرشم و يبرخ، ورسم الحيِّ عليه يرتسم، بعد ذاك، خاطبَ الشّيخُ طيرَه الوديع والذي حباه خالقُ الخلقِ الرّيشَ البديع وأعلمَه طريقَه كيلا يضيع:

-أنتَ يا أجملَ طيرٍ من طيوري، حلّق، وهاتِ لنا تمرةً من تمورِ البصرة، والتي ستُورِثُ هذا الرّجلَحسرة.

طارَ الطّير، وغابَ لحظةً، لم يُغمضْ عابدُ النار خلالها لحظَه، إلى أن جاءَ الطيرُ يحملُ تمرة. طمش25*الشّيخُ الجليلُ التّمرة، ولعابدِ النّارِ قدمها هذه المرّة، وقال:

- كُـلْهـا وأعطني نواها، وبعد حينٍ نخلـةً تراها.

تفحّصَ الرّجلُ الوجلُ التَّمرة، وبقلبهِ منها جمرة، وقضمها ببطءٍ شديد، وكأنه أرادَ بها أن يكونَ الدّهرَ المديد، وأخيراً ناولَ النّواةَ للّشيخِ الجليل؛ فطمشها الرِّيشمّة ، وفي التُّربةِ دسّها ، وبكيفيهِ حملَ ماءً من النَّهرِ نمير، وعلى التُّربةِ رشَّ منه اليسير، وأغمض عينيه، ورفعَ يديه، ورتّـل بعضَ البوث، وما إن إنتهى من ترتيله ؛ حتى أطلتِ من النّواةِ أولُ سعفة ؛ فكانت فسيلة، ومنها بدأتِ الحصيلة؛ وصارت بلحظاتٍ نخلةً تحملُ تمراً شهيّا، ويحتاجُ لمن يكون له جنيّـا، تمرٌ، لا يوجدُ له شبيهٌ في الجوار، ومنه عقلُ عُبّـادِ النّـارِ حار.

إلتفت الشّيخُ البار، إلى عابدِ النار، والذي الرّعبُ في جسدِه سار، وقال مخاطباً إياه:

- هيـّـــا إصعدْ!

- أصعد؟ أينَ أصعد؟ وكيف أصعد! ولِمَ أصعـــــد!

-لا تخفْ يا رجلَ النّار والتي منها يطلعُ الشرار، إصعدْ النّخلة، وبالصّبرِ تحلّ. وهاتِ لنا بعضَ التّمر، أ لا تشتهيَّ أكلَ التّمر !

إرتبك الرّجلُ وما وجد حلا. مدّ يديهِ وتعلّق بسعفِ النخلة؛ فلم يَعُد لديهِ حيلة. وليس هنالك من وسيلة؛ لتجنب الإرتقاء؛ وإلّاسيفقدُ هيبتُه بلا رِداء.؛ وهذا بين جماعته أعظم البلاء، لذا هامتَها اعتلى، وجذعُها تحتَه إنحنى، لكنه تحمّل العناء، غيرَ متوقعٍ ما سيصيُبه من بلاء، لكنه للنارِ توجه بالدعاء؛ لعلَّ منها يحصلُ الرجاء.

-وإذا بـ [أبو الفرَج] يقول بجملٍ قصيرةٍ لا تطول : {سندركا سوقي **(26)**} والمُرةَ لهذا الرجلِ أذوقي، طولي يا نخلةَ ما شئتِ، إرتفعي ما شئتِ، وأنتِ يا ريحَ الشّرقِ هُبّي، ورياحَ الجنوبِ أطلّي، واضربي يشمألِّ وأنتِ ياريحَ الغروبِ، متى تصلي؟

كانت الرّياحُ تضربُ من جهاتِها الأربع، تهبُّ عاتيةً وترجع، والنّخلةُ تنحني نحو الجنوبِ حتى ليكادُ يضربُ الأرضَ سعفُها، وتعود نحو الشّمالِ؛ لتلاقي ريحَ الغرب. كانت النّخلةُ تعلو، والرّيحُ في هيجانها تغلو، وعابدُ النّارِ في مكانهِ الهمومَ يشكو. وبدونَ إنذار، علا صراخُ عابدِ النار؛ فمنه ضاعت الأعذار، ولم يجدْ مفراً من الاعتذار. وبدأ من بينِ الرّيح يصيح، أغثني أيّها الشّيخُ الجليل؛ فقلبي بين أضلعي يكادُ يتوقف، من فضلِك، أوقف هذه الريح؛ كي منها أستريح، وإني من هذا المكان أعترفُ وأصيح؛ لن تروا مني بعد اليوم إلا ما يُريح. وحقِ النارِ والذي منها ينبعثُ الشّرار، لن تروا منّـــا الّإ العهدَ الصريح؛ بألّا نتعرّضَ لمَن على ملتِكم يكون؛ حتى يفرّقَ بيننا المنون.

كان عابدُ النارِ يتلوى، وعن غطرستهِ يتخلّى؛ فلقد سربلَ محياهُ الشُّحوب، ولرَّشدهِ بدأ يثوب. والعاقبةَ لإلهِ النّارِ ينوب؛ ومن الإرادةِ بات هو المسلوب وعلى يدِ (أبو الفرَج) عمّا نوى يتوب.

رفع الشّيخُ الجليلُ عالياً يديه، فتوقفتِ الرّيح، وعادتِ النّخلة لوضعِها المريح.

عندها توجه الشّيخُ الجليلُ لرّبهِ الأرحم، والذي للأنسان ما ظلم وهو يسعى لطلبِ العفو لعابدِ النار من لدنهِ، وأن يُنزلَ عليه السّكينة ويسبغُ عليه بعضاً من حنينه، وقال لعابدِ النار:

-لقد ظهرت خسارتُك ، وبارت تجارتُك ، وبطئلت مهارتُك؛ فماذا تقول وعلام تؤول؟

إنحنى عابدُ النار قُدّامَ الشيخ الوقور، فلقد خاب منه الشعور، وتاه في لجّةِ البحور وأرادَ أن يُقبّلَ من الشّيخ أقدامَه؛ فلقد تبخرّت أحلامُه، وليس من مفر أمامَه، سوى الإعترافِ بحكمةِ غريمه، والقبولِ على مضضٍ بالهزيمة.

-اعفوا عني، وسأكفكم شرّي، ولن تروا بعدَ الآن ضرّي وسـأكون لكم عبداً طائعا، ولأمرِكم خاضعا، ولن أكون لدينكم مانعـا،وعما عزمتُ عليهِ الآن راجعـــا.

وهنا علا اللغط، وشاب شبابُ المندائيين الحضور الشطط؛ فافكهرت الوجوهُ منهم، وبان الغضبُ عليهم، ونُزعت الحكمةُ عنهم، وارتجفت فرائصُهم؛ لذا تقدموا نحو عابدِ النّار، وعيونُهم تقدحُ شرار، وتناسوا أنه بين جماعته رئيسٌ عزيز. وبأرواحِهم عنه يذودون، وعنه يدافعون، ومهما حدث، فهم على دينهِ باقون.

رفعَ الرِّيشمّةُ يديهِ؛ مانعاً إيانا من الغلط.

- لا و ألفُ لا، هذا غير مقبول، وعملُكم غيرَ مسؤول؛ تعاليمنا تمنع أذى الآخرين، وبيننا يبقون آمنين، ولسنا لهم بحاكمين.

إلتفت الشّيخُ الجليلُ للرّجلِ الكسير، وله قال بصوتٍ ملؤه تأنيب:

- لكنك أخواني آذيت، ولهم أذليت، وما من رحمةٍ لهم أظهرت؛ لذ اغلّبت قوتَك عليهم، ولم تحترم أمنَهم. وأردف بصوتٍ حازم؛ أراد منه أنهاء الحال بهذا المقال: إرحل وابحث عمن بك يقبل، وبوجودك يحفل. دعوه يرحل وربُّ العالمين ما شاء به يفعل.

بتعبٍ ظاهر، نكّس عابدُ النارِ رأسَه، وأقدامُه لا تحملُه، ورَهطهُ إبتعدوا عنه؛ فما وجدوا الغلبَةَ منه؛ فتفرقوا، ومنه ما اقتربوا. طبولهُم خفتت، ورايـاتُهم نُكّست، وهمتُهم إنكسرت، وهاماتُهم إنحنت، وأقدامُهم ثقُلت؛ فأخذوا يجرونها جرا، وكأنها صارت حجرا.

بعد أن إنزاحت الغُبارة، وعرفنا الأمارة؛ إلتفت إلينا الشّيخُ الجليلُ وقال: لا تكونوا عبيدَ القيلِ والقال؛ لأنه يقلبُ الأحوال، ويورثكم ما لا تطيقون من الأهوال. رجالُ دينِكم بالدّينِ عارفون؛ إسألوهم، وتعلّموا منهم؛ فهم للدينِ حافظون، وله ولكم مخلصون. أحبوا بعضَكم، سامحوا بعضَكم، وازرعوا الحبَّ والمحبّةَ بقلوبِ الصِّغار؛ ليعلّموا أبناءهم، حينَ الحينُ يحين؛ فعقولهُم الغضّـة تستوعبُ ملا تطيقون، سيكون عهدُهم ليس كعهدِنا، حياتُهم ليست كحياتِنا؛ لأنهم سيعيشون بعدنا، ويواجهون حياةً لمْ نعرفْها، ودُنيا لم نألفها. إصغوا لأبنائكم وبناتكم؛ فهم البذرةُ الطّيبة، ولديهم الفِطنة؛ فكما كنتم صِغارا، سيكونون كِبارا. ولا تنسوا إنَّ الحكمةَ بلا نظام، حصانٌ بلا لِجام.

وأنتم يا رجالَ الدين: لا تكونوا منغلقين، مبتعدين عن الآخرين؛ فهم وأنتم من جنسٍ واحد، وطريقُكم واحد، أفهِموا الآخرين ما أنتم تعرفون، وأقروا بما لا تعرفون؛ لتساعدوا بعضكم ولتكون لُحمتُكم واحدة، إدرسوا، ودرسّوا؛ فالعلم لا يأتي دون تعب؛ فطريقُـه طويل، وذراعه بميل. لقد جاء في صحفِ آدم: حين حذّر (منذادهيي)(م.م13) المؤمنين : { سيظلُّ النور والظلام يتصارعان ، وسيقاتلُ الكفرُّ الإيمان ، ما عاشَ على وجهِ الأرضّ إنسان ، هكذا يُمتحنُ الإيمان } **(27)** وإذا نسِينا؛ فأننا لا ننسى ما أوصانا به نبينُا الحكيم، (ع) حين قال: {رأسُ صلاحِك ، أن تُصلحَ نفسَك. رأسُ التّذكّر، ألّا تنسى الموت. أيّها الأصفياءُ الكاملون، صونوا أنفسَكم من الغشِّ والأثم والزّور والكذبِ والجهالة. لا تكفروا ولا تقربوا الزِّنى والشّرور، واجتنبوا الحسدَ والبغضاء والكّره، وعدم الحياء } **(28)**

بحكمةِ الرِّيشمّة الرّشيدِ آدم أبي الفرَج حصلنا على السلام، وعشنا بوئام، وزادت بيننا الاحلام؛ ببناء عالمٍ خالٍ من عظمة الأوهام، ومن حكامٍ طغَام.

مرت الأعوام وكل يوم يمر نزداد حبورا؛ عندما نعلمُ بأن { آدم أبو الفرج } إلينا قادم؛ فدين المندائيين بوجودِ أمثاله قائم، و أبداً رغم العِدى سالم.

وها إننا لوجودهِ هذا اليوم بيننا منتظرين، لكن طال بنا الأنتظار، والفكر منّـا حار، فيكادُ ينتهي النّهار، والعزمُ منّـا خار. ومن طولِ الإنتظار، غلبَ بعضَ الصغارِ المنتظـرين النُعاس؛ فتقطعتِ منهـمُ الأنفاس، ووهنت على قـوتِها الحواس؛ فصارت الجفونُ على العيونِ حُرّاس. وقبل أن يَعتمَ الوقت؛ إلتهب الحماس، وازدادت أفراحُ الناس وعلت الهمهماتُ، وعلـّت النّسماتُ؛ لذا تيقضتِ العقـول، وزالَ الخمول، ودبَّ النّشاط بعدَ الذّبول؛ فلقد لاح عن بعدٍ من كُـثنا منـتظرين، وبلهــفةٍ له جالسين، وما هي إلّا هنيهةٍ حتى كـان بيننـا الإنسانُ المنتظر؛ شيـخٌ جـليلُ المظهر، حـلوُّ المنظـر، لطيفُ المحضر. كـان يبدو أطـولَ من أي إنسان، شيخٌ شابَ شعرُه، ولم يحـنِ ظهرَه الزمان، طودٌ مملوءٌ بالعنفوان، مبـاركٌ من الخالقِ المنّـان. لحيتُـه بلونِ ثلج الشّمالِ السرمدي؛ حيثُ لا خوفَ ولا بُهتان، وليس للأحزانِ فيه مكان، بل تسبيحٌ لخالقِ الأكوان، تغطي لحيتُهُ البيضاءُ، الصّـدرَ المملوءَ بالإيمان. شعرُ رأسهِ المجدولُ، ملفوفٌ بإتقان، تحتَ عمامةٍ كأنها شمسٌ بوَضح النّهار، بيضاءُ تحاكي

النّقاء، في عِزّ الشتاء. وجنته فضةٌ، تنسابُ منها الأنهار؛ فتعشو الأبصار. في جبينهِ سيماءٌ يتمناه الأخيار، ويخشاهُ الأشرار. لـهُ ذاكرةٌ تخزنُ خفايا القولِ والأسرار، وأحـاديثَ الصعاليك والأخيار؛ علينا بها يـجود كي نبلغَ الرجاءَ المنشود، وتـفتحَ لنا أبوابَ العقلِ المسدود، وليحذّرنـا؛ فلا نـُعيد القولَ المردود، وكيلا يكون بيننا حاسدٌ أو محسود؛ فذا بحسانتهِ يصعد، حيثُ الكاملون الصادقون، وذاك الى المطراثـي (29) يعود؛ فتـُغسلُ الذنوب، وإلى رشدِهِ الخائبُ يثـوب، وإلى ربـهِ التائبُ يؤب. يمناه بالإيمان المركَنـةَ (30) تـُمسك؛ يتؤكـأ عليها ويستند، ومنـها العزمَ يستمد، كـأنها صولـجانٌ، لكنها بلا لمعان الذّهبِ الفتّان؛ فهـي من زيـتون الجنان؛ فلقد باركـها ربنُا المنّـان، مسيّرُ الأكوان، في مختلف الأزمان، غيرَ إنَّ هذا الرّجل، لا يبحثُ عن جاهٍ أو سلطان، بل هي عنده للزُّهد خيرُ عنوان، وهو للشّكرِ أفضل لِسان؛ بـها يجدُ الأمان؛ كيلا ينزلـقَ في مهاوي الشيطان، بها كترس، يُحاربُ الظلام ويُري الخاطئين الموتَ الزؤام .... رجلٌ، ما كان في قاموسه طغيان، ولا في ناموسه بُهتان؛ فهو رجلٌ يجلو الأحزان ويحلُ بدلها - بعون الله - الخيرَ والإطمئنـان، بأحاديثِه تهدأُ النـفوس، ويُزالُ العبوس. ملابسُه، أخذت من النور لونا، ومن الإيمان لونا؛ فكانت بيضاءَ صافيةً نقية. عِمامتُه مُنيرة، كأنها مَنـارة، بالإيمان مُنارة؛ لـتُّوصلَ الإشارة بأننا الاصلُ في الحضارة، وأولَ الأديان أصالة؛ أهلنُا بالواحدِ الأحدِ لا يُشركون، وإليه يتوجهون، وبه يستعينون، وعن شواظ النار الآكلة يبتعدون، وعن الجنانِ الخُلدِ يبحثون؛ ففيها الصالحون الكاملون وفيها كلَّ ما يبتـغون. هميانـهُ (31) من صـوفٍ أبيض مغـزول، وعـن الأدرانِ معـزول، ستون خيطـاً على الإيمانِ معقـودة، وحـولـه بالعنفوان مشدودة. شـرواله، ناصعُ البياض، لـه رائـحةُ الرياض.

عقولنُا في آذانـنا، وعيونـُنا إليهِ متطلّـعة؛ تتفحصُه وإلينا تعودُ فرحـةً راجعة، فما من إنسانِ سواه له هذه الخصال، إنّه أمرٌ يـُثيرُ الخيال، بل إنهُ ضربٌ من المُحال، إنّـه السّحرُ الحلال!

جلسَ بيننـــا، وكنّـــا حولـه متحلـّقيـن، ولأحاديثـهِ متشوقين، ولأخبارهِ متلهفين؛ فهـو راويـةٌ لأحاديث الأقدمين، من أنبيـاءٍ، وصالحين كاملين، بهـا، يجلبُ لنـا السّرور؛ لنزدادَ حُبور. لأحاديثـهِ نكهـةُ التاريخ النّـاصع، من أخبار وروائع؛ فـهـو سِفرٌ كـامل، وعِلمٌ شامل، يُسحرُ السّامـر، و يُـوقظ الخامـل، مواعظٌ شاملة، أحـاديث كاملـة؛ نجـدُ فيـهـا التنبيـهُ والتحذير؛ لنبتعدَ عن الشّرير، ونعمـلَ بما أوصانا به أنبياؤنا الصالحون وآخرهم نبـيُّ الحـيِّ الأزلي الأثير، الذي خلـقه الربُّ الحكيم؛ ليكونَ صـوتَه بين الغـافلينَ والعـالمين، وليكون عِبـرةً للمعتبرين؛ فبذرَ الرحمنُ {يهيّـا يـهانا } (33) النبيَّ الرسولَ في رحم أمّـهِ ليكونَ آيـة؛ فولادتهُ آيـة، ونشأتـهُ آيـة. رسولٌ قبل أن يُولد ، نبيٌ وهـو في بطنِ أمـه، معّلمٌ وهـو لم يُفطـم؛ فهو آيةٌ بعد أن زرعـه الحـيُّ القديرُ وأودعه رحـمَ امــه * أنشبي * وأسماه الحي الأزلي * يحيى *، ولم يسمِّ غيره، لا من قبلُ ولا من بعـدُ؛ فكان - يحيـى - وبه دينُ الأجدادِ يحيـا، أرسل لـه الحيُّ الأزلي من كفله، وعلـّمــه ورعـاه، فكان له معلمـاً ومُرشدا،

إصطفى الحـيُّ القـديم يهيا يهانا، ليكون عبـرةً للعالمين؛ فلقد كانت أمّـهُ قد بلغـتِ الّسابعـةَ والسبعين، وأبوه كاد يكون عمرُه قِرناً من السنين؛ ولأنهما كانا لرب العـزةِ شاكرين، وبنعمائـــــه لاهجين، وبذكر الحـيِّ الأزلي قائمين قاعدين، مُسبّحين ساجدين، وهبهم وإيانا نبيـاً كان آخرَ أنبياءِ المندائيين؛ وبه عادت الدّارة وظهرت الإشارة وكان الرّجلُ وهو جالس بيننا، يظهرُ و كأنـه علمٌ بلا ساريةٍ مرفوع، أو جبلٌ سامقٌ يعلو على الربوع وما هي إلا برهة ؛ حتى بـدأ يتكلّم بصوتٍ مسموعٍ علا على صوتِ الجموع؛ فحمد وشكر ولنعماءِ ربِّ العزةِ ذكـر؛ فخيّـم علينا الخشوع ، و بدا وكأنّه يتوهجُ وسطَ ضوءِ الشّموع.

بـــدأ آدم أبـو الفــرَج حديثـه السّـاحر، وكأنـه المعلّمُ الماهر، كان شـــاعراً ومـا هـو بالشاعر؛ بل مؤمنٌ بأن لا الـهَ إلا الله، واحدٌ أحد، من ذاتـهِ إنبثـق، وعلى عرشِ المـــاءِ الحـــيِّ استوى، شيخٌ مُهابُ الطلعة، أكسبَـه العليمُ عقلاً راجحـا، وفكراً واضحـا، ولأحاديثِ أنبيائِـه شارحـا، ولأفكارهم ومعتقداتِهم طارحـا. يشرحُ بصوتٍ رخيـم، بمنطقِ سليم، من رجلٍ حليم. صوتُه كان، وكأنّه صادرٌ من عمقِ الأكوان، صوتٌ عميقٌ كالبُركان، لكنّه لطيفٌ من هذا الإنسان، قال، بعد أن حمِدَ الحــيَّ الأزلي على نعمائه، ودعـا، وأطال الدُّعـاء،

وابتهل وزاد الإبتهال، وتوسل ضارعاً أن يحفظَ الخالقُ المنّان الأطفال؛ لأنهم عمادُ الدّينِ الأطهار، وبهم يزداد الإزدهار، وأثنى على أنبيائه الأُول من بدايةِ الأزل، آدمٍ وشيتلَ وحامٍ وسام وحتى نهايةِ الأجل.

وقال: يُحكى أن شعباً من البشر، خالٍ قلبُه من الشّر، تحمّل البردَ والحر، وأكل الحلوَ وذاق المُر. تنعّمَ باليُسر وضاق بالعُسر، لكنه لم يرضَ أبداً بالشّر، كان في فلسطين مقيم، و في غير ديارها لا يقيم، حتى طغى اليهود، وأرادوا أن يُزيلوا المندائيين من الوجود؛ بالترغيب والتهديد؛ أرادوا من المندائيين أن يكونوا يهود، رفضَ المندائيون لليهودية أن تسود؛ فأضحوا للنّار وَقود، بل كانوا رقاباً معلقةٌ بالحبلِ المشدود، أو قتلاً بالسّيفِ المحدود، وأضحى طريقُ المندائيين مسدود؛ فإما الموتُ شنقا، أو الموتُ حرقا، أو الموتُ خارج الحدود. أثقلَ اليهودُ من بقي من المندائيين بالقيود، وأحاطوهم بالأسوار والسُّدود، وأقاموا عليهم الجنود؛ كيلا يظهرَ بينهم من يقودُهم نحوَ الصّعود؛ فتنهار دولةُ اليهود؛ فتناقصَ عددُ المندائيين وصار وجودهم محدود.

غادروا أرضَ الجليل، وقلوبُهم تهفو الى كلِّ خليل؛ فلقد تفرقوا في فجاج الأرض، بدأوا يغادرون أرض أورشليم، ولم يعدِ الأخُ بأخيهِ عليم، لكن وجهتهم واحدة؛ أنها طور ميديا، جبلٌ يزخر بالمياه، وفيه تزهو الحياة، وهو للمندائيين أملٌ ، وبلسمٌ للجراح، وفيه يمكن أن يستعيدوا بعض الأفراح، ولن يتأسفوا على ما راح؛ طالما سيحيون بعيداً عن الأتراح.

بدأوا يبحثون لهم عن وطنِ جديد، خالٍ من قيود الحديد، وطن يكون فيه الطفلُ مسعود، والكبيُر بالراحةِ موعود. ليس من اليسير البحث عن وطنِ بديل، بعيداً عن أرض الجليل، وباتت لهم اورشليم سجناً أشبه بالجحيم، وبدأت الهجرةُ والنّزوح، ومنهم بدأت تطلع الرّوح؛ لقد بدأوا يخرجون زرافاتٍ ووحدانا، والهجرة غدت لهم عنوانا.

الموتُ يقفُ أمامَهم والموتُ يعدو خلفَهم؛ هاربين أحيانا ، ومُطاردين، أحيانا، هاربين من موتٍ محتوم؛ مُطاردين من شبح معلوم إن ظلوا في هذه التخوم، وبات العيشُ بين مضطهديهم مشؤوما؛ إذن رحليهُم صار أمراً محسوما. لم يفكروا أبداً في الرّجوع؛ فهذا أمرٌ، بات من بابِ الممنوع. طريقُهم نحو الشّمال، نحو الجبال، لتحقيقِ الآمال.

إتجهوا نحو أرضِ ميديا، طورُ ميديا صار لهم وطناً جديدا، وطناً عتيدا، بلداً بوجودهم سعيدا. جماعاتٍ ووحدانا، خرجوا يريدون الامان، تركوا الدّار والأوطان، وحملوا ما خفّ وغلا، وحبُّهُم للحريةِ علا، ولا شيءَ غيرَ الحريةِ في عيونِهم حلا، وهاهم إليها سائرون، لا يثنيهم عن عزمهم غيرُ المنون.

وصلوا جبل ميديا، وهنالك وجدوا إخوةً قد سبقوهم، وبهم ألحقوهم، فيه استقروا وفيه نما جيلٌ جديد، جيلٌ يحملُ على عاتقهِ عواملَ التّجديد، والماضي عنهم سيكون بعيد؛ هم رجالُ المستقبل وهنَّ امّهاتُ الجيلِ الرّشيد.

مئات السنوات مرّت وهم في الجبلِ يعيشون، ومنه يتعاشون، لكنهم للبطاح أبداً يتوقون، وإليها يتطلعون، وبها يحلمون، لكن ذلك لم يكن بالأمر الممكن الميسور؛ فبحبِّ الأرضِ الجديدةِ، نفوسٌ تشبّعت وغيَرَها ما طلبت، لكن للبشرِ مطالب، وبها يُطالب؛ لذا بدأوا الحركةَ من جديد، لكن هذه المرة جنوباً غربيا؛ فحرّان السفلى ليست عنهم ببعيدة، وفيها أنهارٌ عديدة، وأخلاقُ أهلِها حميدة، ولهم فيها أهلٌ وخلان، ولن يكون الوجودُ بينهم خُسران. هناك كان أقرباءٌ لهم، أهلٌ لهم؛ فبعد أن استقروا في ميديا سنواتٍ طوال، آجالٍ طوال، ملّوا من الجبال وتاقت نفوسُهم لأراضٍ منبسطة، لحياةٍ بسيطة، لحياةٍ خاليةٍ من الجبالِ والتِّلال.

ودارت الأفلاك ، حاملةً العُلا، حاملةً طيرَ السعد، لإبناء المندا؛ [أبناء العلم] فلقد نبعُ النبع، وابتسم الحظ؛ فبنو العبّاس، بالعلماءِ كثيرو الإيناس، وهم للعلم حُرّاس وهم للعلوم طلّاب؛ فللتّرجمة بنوا محراب؛ والمندائيون خيرُ من فتح هذا الباب؛ فأبدعوا وأجادوا، والثقافةَ لغيرهم أفادوا؛ ترجموا، ألفوا، هندسوا، طببوا، وفي الدواوين كتّاباً كانوا، ولهم مجداً أشادوا، وعن هذا المنهج ما حادوا، بل تمسّكوا به حتى به الامراءُ تنادوا؛ فلقد ذاعَ صيتُهم، وطالَ باعُهم، وأجادَ يراعُهم ، وكانت لهم الرِّيادة، في ديوانِ الرّسائلِ والكتابة، دورٌ كانَ لهم فيه السّيادة؛ فإسحق الصابي، صاحبُ الدّيوان الرسائل، وصديقه الأعز الشريف الرضي، وبالمقام العالي حضى ،

وبغيرهِ ما رضى، وبنو قُرّة كان لهمُ الطبّ، وهو الذي جلبَ لهم الحبّ. الصابئة المندائيون، علماءٌ حكماءُ، مهندسون، فلكيون، أطباءُ، بل قُل، نبغ فيهم ما تشاء؛ ففيهم طبعُ ونبوغُ الأصلاء، ولن يأخذها منهم إلا من عرشهُ في السماء. أسماءٌ في سماءِ المجدِ لمعت، وببريقِ وجودِها الأرجاءَ أضاءت { البتاني، البيروني، جابر بن حيّان، سنان، الهلال، المحسّن، إسحق الصابي، ثابت بن قرة ، وآل قرة أجمعين } أسماءٌ سماءَ المجدِ أنارت، شهبٌ ما خبا وهجها، بل سار آخرون على نهجِها، ونهلوا من فكرها، ونحلَ سرّاقٌ آخرون بعضَها؛ ولأنفسِهم أرجعوها. وبدأت النميمة وازدهرت تلك العادة الذميمة ومعهـا أدارالحظ وجهه عن الصابئين ، وعزَّ الوجودُ في دارِ الخلافة وغدا محدودا؛ فالحسّادُ قد أوجدوا لهم فيه وجودا. وحالوا بينهم وبين النجاح والسعود، وتصدوا لهم في النّزولِ والصعود، وأنزلوهم دركات، وأكثروا عليهم الملامات بين الوزراء، وأُولي الأمرِوالحشود، بل محوهم من الوجود، وبدأ البعضُ يقرّب الحاسد، وُيبعد المحسود، وما كان بين المندائيين قائدٌ موجود؛ فغدا طريقُ العلا مسدود؛ فظهرت النميمة، وبدأت الهزيمة، وخارت العزيمة، وصارت السجونُ لبعضِهم موجودة، والسّيوفُ لبعضهم محدودة، وباتت على رقابِهم ممدودة.

وكرتِ السّنواتُ وتوالت، ونفوسُ المندائيين إلى الأنهارِ في البطاح تاقت.

ومرت العهود حاملة أردون ملكـا **(33)** للوجود ؛ فكان للمندائيين قائداً ولهم راشدا، ولخلاصـهم واعدا ومن أرض حرّان نزحوا ومع الأنهار ، ساروا حتى وصلوا أرض ميشان: حيث طيبةُ ماثا، بلدٌ لا يطاله النسيان، أنهارُه تفيضُ في نَيسان؛ فتغسلُ معها الأحزان؛ بما تحمل من خيراتِ الأزمان، وتتنّور الشطئآن بمختلف قِطعان الغزلان .وفيها الخيرُ وفيها الأمان ، وفيها لهم أهلٌ من قديمِ الزمان.

المندائيون تحـابوا وتكاثروا؛ فتفتحت بينهم، براعمُ جديدة، بقاماتٍ مديدة، بنظريات سديدة، وتسلحـوا بأسلحةٍ عديدة، أهمهـا، العِلمُ والحِكمُ الرشيدة؛ وبذا صارت أرضُ ميسان لهم عنوانا، وغدت لهم وطناً جديدا، لكنَّه ليس كباقي الاوطان؛ ففيه أشادوا وأحكموا البنيان.

لقد تعددت هجراتهم من مصر وفلسطين الى ميديا وحرّان، وها هي ميسان، قد تكون آخر الأوطان، وقد يغيّر الرّحمنُ المنان هذا العنوان، ويُوجِد لهم أراضٍ لا يحلمون بها أبدا؛ فيعيشون مشتتون في مختلف الأوطا ن، وأبتهل من الرحمن ألّا يحدث مثل هذا العنوان !

وعدّل الرّجلُ الحكيمُ من جلستهِ، بعد أن شَرِب بعضَ الماء، وحمد الحيَّ الأزلي وقـال:

{ فرواه ماري } **(34)** المنان الذي يسقينا مياه الجنان.

وبدون سابق إنذار إنتقلَ الرِّيشمّة نقلة ما سمعنا بمثلها من قبلٌ ؛ حين قال:

المندايئون أبوهم آدم وأمُّهم حوا، العفّـةَ والطيبةَ كلاهما حوى، كانا في جنان الخُلد ينعمانِ، و في السّماءِ السابعةِ، يُسبّحانِ، فوق أديم(آيرَ) **(35)** البيضاء يعيشانِ، ومن ثمارِها السرمدية يأكلان، ومن عذب فراتِها الأزلي يرتويان. ماؤه ينبعُ من أجملِ الجنان، فيه، يغتسلان، ويرشمان ويبرخان، ومن مائِه العذبِ يتطهران، ولعبادةِ الواحدِ الديّان يتوجّهان، ونعمتَه عليهما لا ينسيان؛ فبالدعاء ليلَ نهارَ يلهجان.

(فرات زيوا) **(36)** الأزلي؛ نهرٌ لا يجفُّ ماؤه، محميةٌ أرجاؤه، تنّور فيه أحياؤه، ذهبيـةٌ شواطئُه. (الدرفشُ) **(37)** فيه يلمع، والحبُّ فيه يرتع، وعلى جوانبهِ أعذبُ الألحانِ تُسمع.

قال صاحبُ الكلمـةِ الأولى والأخيرة لمخلوقيهِ النورانيين: أن كـلا واشربا، ومن شجـرةِ التُّفاح هذه لا تـقرُبـا؛ ثمـرُها عليكما محـروم، والموتُ قربَهـا محتوم وسيظلُ مصيرُكما بعدَها مشؤوم. عليكما تقعُ اللائمة، ولن تقومَ لكما بعدَها قائمة، لكما ثِمارُ هذه الجِنان مُباح، إلا هذا التفاح.

الرّحمنُ لهذين المخلوقين كان يختبر، لعلَّ أحدهما يُعتبر، وأمرَ الواحـدِ الأحـدِ يحترِم، لكنَّ الغوايـةَ كانتْ منهما أكبر، وحبُّ المغامرة كان فيهما قد أشّـر، وقلبـَهما قد أسّـر، إلّا أن الهلاكَ إليهما لم يتأخر؛ فالمرجومُ كان

لهما بالمرصاد؛ فظهرَ لهما بشكلِ أفعى، وإليهما بالمعصية سعى، والغافِلين إليهِ دعـا، ولحرمتِهما ما رعى، لكنه لمحاولته وعى؛ فوقفَ لهما في المِيعاد؛ يغويهما، ووجدانُه مملوءٌ بالأحقاد؛ فلقد طرده الحـيُّ الأزلي المنّاع، ومن جنانِ الخُـلـدِ اسمَه شطب؛ فتولاه العـطـب؛ لذا أعلن الحرب وعاش في الظُلماتِ والخرب، ينتظرُ على الدّيّـان الغلب؛ فما نالهَ غيرَ الوصب، وأضحى مصيرُه العيشَ في التُرب، وما حصّلَ سوى العُسرِ والتّعب، الشّيطانُ لهما غـوى؛ فزيّن لهما أكلا، وطيّب لهما نفسا، والخوفَ عنهما أبعد، و لمعصيةِ الـرّحمن أرشد، والتفاحـةَ الشّهيةَ، إليهما مـدّ؛ فقضمت منها أُمّنُـا قضمة، وأبونا عنها ارتد، وبذا غضبُ الحليم إشتد، والنقمةَ عليهما أوجد، وصار نهارُهما أسود؛ فبهمـا الرّحمنُ أرضَ آير البيضاء خسف؛ فكانا وكأنهما من التّمرِ الحَشف، وبهما ما لطف، بل زاد عليهما الرّعدَ والعصف، ونحو الهاويةِ، الأرضِ الفانية بهما قذف، حيث الـدّمُ والمرارة والبرودةُ والحرارة؛ فما نالا من الأفعـى سوى العسف، ومن الرحمن الموتَ والتّـلف؛ فصارت فعلتُهم للمعصيةِ مَعلما، وبذا بدأ الشّيطانُ في الأرضِ عمله. لكنْ، خلقَ الرّحمنُ الرّحيم جنةَ دنيوية أسماها الأرض؛ فما أرادَ الحيُّ الأزلي أن يعيشَ الأثنان في مكان يباب، خالٍ من الأصحاب؛ وليُعلِمَا الجميعَ إنَّ أرضَنا خالقُها بديع؛ فلابدَّ ان يكون البشرُ لخالقِهم مُطيع، والرّحمةُ بينهم تشيع؛ ولذا أرسلَ ربُّ الملكوت، الانبياءَ والُرسل، ليعلّمَوا بني البشر؛ كيلا تعاليمُه تضيع.

بدأت الأرضُ بالعَمار وتغطّت بالأشجار والثِمار، إلا إنها خاليةٌ ممن يُديرُها وإلى جنـةٍ أرضيّةٍ حقيقيـةٍ يُحيلها، فكانت إرادةُ الرّحمن: أن كونا يا من خسفتُ بكما الجنان بشرا؛ لتُديرا رحى الزمان، وتُعطيا البرهان على إنكما ندمتما على ما كان، وتحققا الأمان في عالمٍ بلا أحزان؛ فهل أنتما قادران يا إنسان ! ***

وهنا إلتفتَ إلينا صاحبُ الهميان، وقد بدأ الفجرُ بالصّحيان، وقال سأكتفي بهذا القول في هذا المكان، ولي معكم جِلسة بعدَ حول؛ لو عشتُ وعشتم ؛ فإرادة الخالق، فوق إرادتِنا ولكنْ وقبلَ أن أغادر؛ علينا أن نرشمَ ونبرخ، وبالماءِ الحيِّ نتبارك؛ لتكون أجسامُنا طاهرة وعقولنُا طاهرة، وملابسُنا طاهرة. وبـدأ الرّيشمّة الحكيم، يتلو البُوث ومن الماءِ الحيِّ يطلبُ الرُخص. شقَ الماء؛ لطلبِ الرّجاء، والراحةِ والصفاء، وإلى الخالق إبتهل، ومثلهُ فعلنا، ولربنا توجهنـــا.

لقد تبِعناهُ في صفوف؛ فهو الرِّيشمّة الموصوف، وعلى المحتاج يطوف .

ثمَّ إلينا التفت، وأخبرنا بصوتٍ عطوف: { لا تنسوا : متى إحتجتموني، تجدوني، تعالوا اليّ فمكاني معلوم، وسأفك عنكم طلاسم الظلام؛ وسأستعين بعلاّم العلوم؛ فلهُ العزةُ، وله أن يُزيلَ شؤمَ المشؤم.}

بعدها غادرنـا الرّيشمّـة الجليلُ وارتحل، وما هي إلا لحظة عينٍ وانتباهتِها؛ حتى ندبَ أحدُنا حظه؛ فلقد إختفى الرّجـلُ في لحظة، ولمّا غاب، خلبَ منّـا الألباب؛ فبقاؤه بيننا أطولَ مدةٍ خاب.

وبعد رحيله، القولُ اختلف؛ فمنا من قال، انه أوحـد الزمان ومنا من قال الحمـدُ لله المنان الذي جاد علينا بهذا الانسان. ومهما يكن، فلقد كان حين إلينا يتحدث، وكأنه للتاريخ لسان و هـو أعظم من أن يُسمّــى إنسان، إنّـه أوحدُ الزّمـــان :

إنـــــه الرِّيشــــــــمّـة آدم أبـــــو الـــفَـــــــــرَج

تم بعون الحي الأزلي أنجاز هذا العمل في 13 /3 /2013

هوامش وتعليقات:

(1) وأتوجه بالشكر الخاص للمهندس المندائي الشاب حسام هشام العيداني الذي جعل الحرف المندائي الآرامي متيّسر الإستعمال في الطباعة على (الكومبيوتر) والذي لا يظهر الآن لعدم وجوده عند معظم مستخدمي الأنترنيت .

(2) شعـار : يمثل [الافعي والاسد والزنبور و العقرب] ويسمّى عند المندائيين [سكين دولة] وهي منقوشة على حديدة مدورة وهي تمثّل قوى الظلام حسب العقيدة المندائية . [لمزيد من المعلومات راجع ص86 من كتاب الصابئة المندائيون – الكتاب الاول- تأليف : الليدي دراوور ، ط2 1987] ترجمة :غضبان رومي ونعيم بدوي.

(3) أكا هيي أكاماري أكا منادهيي : آرامية مندائية : الحي موجود ، الله موجود ، عارف الحياة موجود

(4) منقول عن موقع – أناقـة مغربيـة -

(5) صوبة علاء الدين : مدفأة نفطية ذات عنق طويل ، كانت شائعة جداً إبان الخمسنينات وحتى الثمانينات من القرن العشرين.

(6) تلك القصص إنما هي من قصص ألف ليلة وليلة.

(7) الآسي : الطبيب * القمين : الجدير [عربية]

(8) الحلالي : المندائي الذي من عامة الشعب لكن يجوز له نحر الخِراف والدجاج وبقية الطيور المحللة.

(9) المندائيون : الصابئة الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم في ثلاث سور : الأنعام والحج والمائدة.

(10) رواه ناويلة : له الرحمة [الملواشة](الأسم الديني) لكل مندائي : اسم ديني يتم التعميد به ويكون اسم الام بعد اسم الولد أو البنت فاسمي الديني (بيان) ، واسم امّي الديني { هوا بث مليحة }؛ لذا سيكون اسمي في التعميد (بيان بر مليحة) [بر] تعني : ابن فيكون اسم أبي مثلاً {سام بن ياسمين} وبالنسبة للإناث [بث]

(11) الكنيانة : الكِنية : اللقب.

(12) شوشتر :مدينة سكنها خليط من الصابئة المندائيين والمجوس ثم سكنها المسلمون بعد الفتح الإسلامي : تقع في غرب إيران محاذية لمدن العراق الجنوبية الشرقية.

(13) خط مندائي آرامي يعني : باسماء الحيَّ العظيم . {قد لا يظهر} لمن ليس لديه خط آرامي .

(14) رشامة وبراخة [مندائية] تعني الوضوء والصلاة.

(15) مبروخ ومطروس : مُبارك ومُعمّد بالماءِ الحيّ.

(16) مختارات من {تعاليم يحيى} [دراشة اد يهيا]النص الخامس والعشرون.

(17) دراشا اد يهيا [مندائية] تعني كتاب تعاليم ومواعظ النبي يحيى بن زكريا (ع)

(18) الصباغة [مندائية] الصباغة بالماء الجاري.

(19) من النص 27 من تعاليم يحيى (ع) * دراشا اد يهيا *. ترجمة الأُستاذ : أمين فعيل حطاب - وصياغة أدبية للشاعر سميع داوود سلمان - 1997

(20) الرّباب الغيم الخفيف .القمين : الجدير [عربية]

(21) الكِنزا ربـا : كتاب الصابئة المندائيين المقدّس. ويتكون من قسمين – اليمين – يتحدث عن الحياة وتكونها ، أما القسم الثاني وهو الأيسر ؛ فيتحدث عن مسيرة الروح بعد مغادرة الجسد

(22) إزاهارات : كتابات تاريخية.

(23) منداهيي [مندائية] تعني كائن نوراني من الأُثري الذين سلحتهم الحياة العظمى باليقظة والفطنة ، وقد علّم الإنسان الأول العقيدة وأصول الدين { راجع هوامش النص الحادي والثلاثين من دراشة يهيا (ع) وكذلك اطروحة الاستاذ عبدالمجيد سعدون الصباحي { أسماء الأعلام في كتاب كنزا ربا }– اطروحة ماجستير- ص 40

(22) بر (م) ابن - نو : نوح

(23) الريشمّة: درجة دينية مندائية تعني : رئيس الأمّـة.

(24) البوث (م) مفردها : بوثة أو بواثى : الآية.

(25) طمش [مندائية] الغطس في الماء مع ذكر اسم الحيِّ.

(26) سندركـا (م) : نخلــة . سوقي : ارتفعي

(27) كَنــزا ربـا : كتاب الصابئة المندائيين المقدّس ، القسم الأيمن

(28) كنزاربــا : القسم الأيمن – تعاليم يحيى –عليه السلام-

(29) مطراثى: (م) : مفردها : مطراثا : تعني أماكن التطهير أو محطات التطهير للنفس البشرية ، بعد الموت

(30) المركَنــة (م) : عصا يُمسك بها رجل الدين وهي مأخوذة غالباً من أشجار الزيتون.

(31) الهميان (م) : الزنار ، النطاق : نسيج مجوّف من الصوف المأخوذ من خروفٍ ذكر أبيض اللون ، وهو حيٌّ للدلالة على استمراية الحياة .ويتكوّن الهميان من ستين خيطـا ، تُحاك بنظام ديني خاص / يحمل معنى طقسيا وهنالك الخيط الحادي والستين والذي يلف جميع الخيوط . يبدأ الهميان بما يسمى – العقدة – وينتهي بخيوط سائبة تسمى – كركوشة

(32) يهيا يهانا (م) : كلمة مندائية آرامية تعني _ اسم نبينا الكريم _ يحيى بن زكريا (عليهما السلام).

(33) اردوان ملكـا : الملك البارثي الذي قاد المندائيين من أو إلى مدينة حران السفلى - هران كويثـا- . وهنالك روايات مختلفة عن هذه الشخصية التاريخية . والتي تقول :

{ أنه } قاد المندائيين الى طور مداي أو طور ميديا من اورشليم

(34) فرواه ماري (م) : الحمد لله.

(35) آير (م) : الأرض السماوية التي يسكنها الملائكة وفيها الحيُّ الأزلي ، حسب عقيدة الصابئة المندائيين

*** لكننا نواجه أمراً آخر ؛ فما ورد في { الكنزا ربـّا } القسم الأيمن : لايتوافق وهذا الحدث وعليه أجد لزاماً أن أقتطف بعض ما ورد في كتابنا المقدّس ؛ فالنص طويل ؛ وفيه نجد *(ليكن آدم ، ملكاً للحياة الدنيا يكون ، سمِعت الملائكةُ ، وائتمرت ، ثمَّ اتفقت؛ قالت ليكن آدم . واحداً منّا سيكون .تعال الآن يا بثاهيل . ومعـاً نخلقُ آدم ...كبيرَنا سيكون ، الحزنُ يترقرقُ في قرارةِ نفسي.. أنا بثاهيل . كانت أمنيتي أن أخلق آدم وحدي . لو جاء كما تبتغون ماذا سيكون ؟ قالوا : فإذا أطعناك ، فأي سلطانٍ في الحياةِ الدنيا لنا سيكون ؟، تخدمونه ..وحراساً له تصبحون .....وحين يُتمّ آدم مهمته يُمكّنُ من العودة إلى ُموطنه، موطنِ النّور مع أدكاس زيوا أبيه ليكون ملاكاً

فيه)* يوجد النص الكامل في [الكنزا ربّـا] القسم الأيمن ، التسبيح الثاني – خلق آدم – : ص 70 – 82 وفيه وصف رائع لتكوين * آدم * عليه أفضل السّـلام .

من هذا يتضح البون الشاسع فيما ورد سابقاً وهو أقرب الى الروايتين اليهودية والمسيحية منها إلى المندائية ؛ فعذراً .

(36) فرات زيوا (م) : نهر الفرات الأزلي الذي يجري في عالم النور ويسمّى ايضاً – فراش زيوا- وهو مصدر جميع الانهار والمياه – راجع . دراوور ص37.

(37) الدرفش – الدرابشا (م) : العلم أو الرّاية - ترمز إلى عالم النور ؛ إتخذه النبي يحيى بن زكريّـا (عليهما السـلام) رمزاً أثناء التعميد .

فـاروق عبدالجبّــار عبدالإمـــام

بيان بر مليحة

مليحة بث أنـهر

بيرث – غرب استراليا

جميع الحقوق محفوظة

farouksabiry@yahoo.com

mugzal49j@hotmail.com